مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الحَجِّ

أ.د خالد بن حامد الحازمي
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد القرآن الزكية

سورة الحج

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الحج

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) ﴾

ابتدأت سورة الحج بموعظة عظيمة، تستنهض الهمم للطاعة، وتستيقظ الإنسان من غفلته التي يعيشها؛ بتحذيره من أحداث وأهوال يوم الساعة، وذلك بالكشف عن أمرها وشأنها العظيم، الذي يستلزم من كل أحد من العباد أن يحذر ذلك اليوم؛ بامتثال أوامر ربه تبارك وتعالى، التي أنزلها على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها موعظة واعظة بمستقبل العباد، إذ تنبه وتستيقظ الْمُخَاطَبين من سبات غفلتهم، وتنبههم وتحذرهم من مشهد يوم عظيم، لتستثير فيهم الصحوة بعد الغفلة، والانتباه بعد السهو، ليستعد كل واحد منهم ليوم الحساب. فقال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ فهو نداء لكافة الناس ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ليشمل كافة جنس الإنسان، المؤمن، وأهل الكتاب، والمشركين، وعموم الكافرين. ويتضمن أسلوبها الامتداد الزمني في مخاطبتها لجميع الأجيال المتعاقبة، ابتداء من الذين هم في عهد نزولها إلى من بعدهم حتى قيام الساعة. فالمُخَاطِب للناس هو ربهم وخالقهم، والْمُخَاطَبُون هم الناس عموماً، ومضمون الخطاب هو التزام التقوى ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ وسبب وعلة النداء لهم بالخطاب الذي يدعوهم للتقوى هو التحذير من يوم الساعة ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ فإنه يوم تتعاظم فيه أهوال وأحداث الساعة.

وقد بدأ خطاب الله تعالى لعباده بالنداء لهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فيكون مع بقية السياق يحمل النداء التحذيري الذي يفيد الشفقة والرحمة بهم من أن ينالهم العذاب؛ إن لم يستجيبوا لربهم تبارك وتعالى. وفي

مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ما يسترعي أسماعهم، وشد انتباههم، ولَفْتِهِ لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء آذان الْمُخَاطَبِين للإصغاء، وعقولهم للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب، مما يدل على أهمية ما ناداهم إليه ربهم تبارك وتعالى من البيان والانذار، وما يجب عليهم من الانتباه له باهتمام، وأخذه بكمال تعقل أولي الألباب. فكان الْمُنَادَى لَهُ هو تقوى الله تعالى ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ الذي يتضمن الخشية والخوف منه عَزَّ وجل والعمل بطاعته، واجتناب ما نهى عنه وزجر، فهو أمر بتقواه عَزَّ وجل، وذلك عن علم ورغبة ورهبة ومحبة له تبارك وتعالى، حيث ارتبطت التقوى بربوبيته ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فهو ربكم، إذ أن كلمة ﴿رَبَّكُمْ﴾ تُقَرِّر للناس ربوبيته سبحانه وتعالى، حتى في بنية الكلمة، بإضافة ضمير المخاطبين إلى كلمة الرب، التي يتقرر بها أن الله تعالى ربكم، وما يلزمكم ويجب عليكم من تقواه، كما أن في تلاصق وترابط وتتابع كلمة التقوى بكلمة ربكم ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ ما يفيد استحقاق التقوى منكم له وجوباً. إذ أن الرب هو المربي لجميع العالمين بهديه ونعمه، فهو الذي رباكم بالنعم وبما ترونه من ملكوته الدال على ألوهيته، وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى، حيث عَرَّفَهُم منشأهم ونشأتهم، فوجههم تبارك وتعالى إلى عظيم ما سيقع لهم، فاحذروه وتَوَقّوه بالطاعة والامتثال ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ إن ارتجاف وارتجاج الأرض يوم قيام الساعة أمر مهول، حيث تتصدع وتندك الجبال، فإذا بها كثيب مهيل، ثم تكون هباء منبثا، وتتفطر السماء، وتُكوَّر الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، فحينها ستكون القلوب في غاية الرعب من هول ما تسمع وتشاهد، وتحسه من الرجف بجميع أنواع الحواس.

وقد جاء البيان عن الساعة في هذا السياق بالتعميم دون التفصيل ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ لإفادة التهويل والتعظيم، وتركيز وشد الانتباه في هول أمرها وشأنها، مع إضافة صفة العظمة لذلك الشيء ﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ فالعظيم هو: الشيء الضخم المهول في حاله وهيئته. وقد ابتدأ بيان شأن الساعة بحرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي يؤكد ما بعده من البيان، بأنه حقيقة مؤكدة الوقوع، بأن الأرض سوف تتزلزل يوم قيام الساعة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ والزلزلة هي: شدة الحركة. وهي: حركة الأرض وارتجافها وارتجاجها بتتابع، مع تكرار حركة الارتجاف والارتجاج. ومن جماليات اللغة العربية، أن كلمة **(زلزل)** مكون من حرفين (حرف: **ز**، وحرف: **ل**) وجاء تركيب كلمتها من خلال تكرا الحرفين، ليتناسبا مع هيئة الحدث في تكرار حركته وحركة الأرض.

وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن الجمهور فيما يخص موعد الزلزلة، أنه قيل: أن الزلزلة المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قول الجمهور[١] فموعدها يكون قبل يوم القيامة، وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، أضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم[٢] فإنه يوم عظيم من كل وجه، مما يستوجب على الْمُخَاطَب وهم الناس أجمعين أن يتقوى الله ربهم سبحانه وتعالى، بالدخول في دين الله عَزَّ وجل الذي أرسل به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والخوف من عقابه، والتزام طاعته، والحذر مما أخبرهم به تبارك وتعالى رحمة بهم.

ثم يكشف الله سبحانه وتعالى أوصاف الساعة من خلال الإخبار والبيان عما يُصَاب به الناس عند رؤية أهوالها ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ يتوجه الخطاب في الآية الكريمة من الله تعالى إلى الْمُخَاطبين به عموماً، وهم جميع الناس ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ أي: يوم ترونها أيها الناس. فإنه في ذلك اليوم الذي تشاهدون فيه أهوال الزلزلة؛ وتعايشونها بأعينكم وقلوبكم وبجميع حواسكم، فتكون الرؤية لها مباشرة بالعيون، لتعيشوا أهوالها وأحوالها، وتحصل المشاهدة لكم بشقيها البصرية الحقيقية، والمشاهدة الحسية بالحواس لأصواتها، وحركتها، وسماع دوي الارتجاج، والحركة العظيمة لها، ومشاهدة ومعاينة أهوالها بالأبصار، فتعيشون لحظاتها. فإنه حينها ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ فينشغل عقل الأم الرضيع وبصرها وحواسها عن رضيعها الذي تُرضعه بما ترى وتشاهد في تلك اللحظة.

قال القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿تَرَوْنَهَا ﴾: عائدة عند الجمهور على الزلزلة[٣] فالزلزلة هي من مقدمات يوم القيامة. فحينها ستتخلى الأم المرضعة عن أَلْصق الناسِ بها؛ وهو رضيعها ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ فينشغل عقل الأم وبصرها وحواسها عن رضيعها الذي تُرضعه بما ترى وتشاهد في تلك اللحظة. فالذهول هو: الحيرة والارتباك مع الترك للمهم، والانشغال بغيره عنه، لهول وشدة ما ترى، فتخالف الأم ما جُبلت عليه من حب رضيعها، وقوة شفقتها عليه إلى الانشغال بالذي أذهلها عن رضيعها، لشدة هول ما تراه وتحسه من الزلزلة، إذ أشغلها الهول والذهول عن حبها الفطري لرضيعها الذي لا تنشغل

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٤-٥)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢١٣)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٥)

بغيره عنه في حياتها، فقد اختلفت حالتها وطبيعتها بلحظات الارتجاف المهول. فإن حالتها هي أن طفلها ملتقم ثديها؛ يرضع منه، فيهولها ذلك الأمر عن إرضاعها له.

ومن دقائق السياق وإعجازه البياني والبلاغي أن ذكر سبحانه وتعالى الأم المرضعة بصيغة المباشرة للرضاع، أي وهي في حال إرضاع رضيعها ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل مرضع، فالمرضع: صفة لكل امرأة تدر اللبن، بحيث يمكنها الإرضاع إذا رغبت، والجمع للمرضع هو: مراضع، وأما المرضعة فهي صفة للمرأة التي تباشر إرضاع الرضيع. فتترك رضيعها وهو في حالة وجود الثدي في فَمِ رضيعها، نتيجة ذهولها من الموقف، وهي أشد حالات الترك، لذهولها. فالتزامن بين شفقة الأم حال إرضاعها رضيعها مع ساعة ولحظة ذروة الشفقة والحنو، واللطف عليه وبه، فيتزامن ذلك الحال مع وقوع الذهول عنه، ليحل محله غياب العقل عما يحب ويشفق عليه. فإن ذلك صورة بلاغية قوية لبيان شدة أثر الزلزلة التي غاب بها إحساس الحب والشفقة عند الأم المرضع عن رضيعها، فزال عنها، حتى أصبحت وكأنها لا تعيش تلك اللحظة؛ مما كانت عليه، لشدة الشيء الذي أذهل عقلها، وشدها بإشغالها عن أقوى حالات العطف والتعاطف.

ومن حالات الناس المذهلة ذلك اليوم ما بينه قوله تعالى ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ فكل حامل تُسقِطُ ما في بطنها، بوضع حملها قبل تمام زمن الولادة الطبيعية لها، بسبب هول الزلزلة ذلك اليوم. فينخرط الطفل من رحمها دون أن تكون لها أدنى إرادة في ذلك. مما يبين شدة هول المؤثر الذي تجاوز فقدها لإرادتها إلى حد سقوط الجنين بنزوله من الرحم حالاً، فور المشاهدة للزلزلة. وفي هذا دليل على أن الزلزلة في الدنيا قبل البعث. لأنه لا حمل ولا إرضاع بعد البعث. فالساعة وما فيها من الزلزلة هي مقدمات ليوم القيامة، التي يُبعث فيها الناس من القبور.

وكذلك من دقائق البيان وبلاغة إعجازه في دقة الوصف هو الاحتواء والاستيعاب الكامل لكل الحوامل ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ فإن ذلك يقع لكل من كانت حامل من النساء، على اختلاف عمر وزمن الحمل، فليس هو خاص بحامل دون أخرى، فالهول يقضي بهذه الحالة للجميع من قوة شدته. لأن كلمة ﴿كُلُّ﴾ تجمع الجميع من غير استثناء. وهذا يستوفي كذلك كل مرضعة، فليس هناك فوارق في المشاعر، فإنها تجتمع في حالة الذهول، مما يفيد: عظيم ذلك الهول في ذلك اليوم، الذي يجب الاستعداد له، والحذر منه بالعمل الصالح له.

والصورة الثالثة لذلك اليوم هو مشهد حال الناس ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيحسب الرائي أن الناسَ سكارى من شدة الهول، فحالهم في تصرفاتهم هو

حال الفاقد لوعيه ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ ولم يُحدد السياق الرائي ليكون عاماً، حتى يتصور كل أحد ذلك المشهد وكأنه يراه بعينه ويعيشه بأحاسيسه. ومن قوة الأسلوب البياني. أن ورد لفظ الرائي مفرداً ﴿وَتَرَى﴾ ليستشعر كل أحد أنه هو الْمُخَاطَب بنفسه، وأنه هو المعني بذاته، وأنه هو الرائي. كما ورد بصيغة المضارع، والذي يفيد الحال الحاضر، ليعطي استحضار المعاينة للمشهد وكأنه يراه، وليعطي تأكيد ما وعد الله تعالى به، وكأنه يراه عياناً، فيستحضر الهول. في حين جمع أهل المشهد الذي تقع عليهم الرؤية، وهم الناس جميعاً ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ فحال الناس كلهم هو حال من خالط عقله الشراب المسكر، فيرى الرائي حالهم أنه كحال من فقد وعيه من شدة شراب المسكر، فظهر ذلك في هيئتهم، وتصرفاتهم، لذهولهم من هلع ما يرون من أهوال الساعة، وما أصابهم من الخوف والذعر. وحقيقة الأمر أنهم لم يشربوا مسكراً، فليسوا بسكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ فحقيقة شأنهم وحالهم أنه ليس بهم سُكر من مسكر، ولكن قوة ذلك الخوف والهلع من جَرَّاء استشعارهم قوة عذاب الله تعالى؛ فجعل حالهم وهيئتهم من الدهشة كأنهم سكارى، لِمَا عاينوا من أهوال الساعة ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فَسَرَى فيهم الكرب والرعب والخوف من عذاب الله تعالى، لعلمهم بشدة وقع عذاب الله تعالى.

ومن دقائق السياق في الانتقال من حال وصف هيئة الناس في رؤية من يراهم إلى حقيقة هيئتهم، وموجب ذلك التصرف أنه كان بحرف ﴿وَلَـٰكِنَّ﴾ الذي أفاد نفي الصورة والهيئة التي يحسبها الرائي، لينقله إلى الحقيقة ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فواقع الحال أنهم ليسوا بسكارى ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فَشِدة عذاب الله تعالى جعلت حالهم كحال من شرب مسكراً، فوقع في الاضطراب والذهول الذي جعلهم يتصرفون بلا وعي، فطاشت عقولهم، واضطربوا في كلامهم. مما يبين قوة عذاب الله تعالى، الذي تذهل منه العقول.

وفي سورة الروم ذكر سبحانه وتعالى حال فريق المؤمنين وحال فريق الكافرين يوم تقوم الساعة، فقال تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ مما يدل على أن ذلك الحال هو خاص بالكافرين.

ومع كل هذا البيان والتحذير، وما أُخبر به اللهُ سبحانه وتعالى عن أحوال الناس؛ وما هم مقبلين عليه إلا أن هناك من يعاند بجهله، وإصراره على اتباع خطوات الشيطان ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ فإنه يقابل المؤمنين المصدقين فئة المجادلين من أهل الكفر ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ ﴾ فمن الناس من يخاصم ويحاج ويعاند ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في شأن الله تعالى وقدرته، فجداله واقع ومتمحور في شأن الله تعالى. وهذا الجدال مبني على مرتكزين خاطئين: المرتكز الأول: الجهل، فهو ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ فليس له أي ركيزة علمية، وبالتالي التصق به الجهل المضاد للعلم، وثبت أنه خال من الحقيقة، وخال من التدبر والتمعن والتفكير. فخالف حقيقة العلم. مما يدل على أن الجهل طريق الضلال، ولا يزول الضلال عن الإنسان إلا بالعلم. وأنه لم يتدبر آيات الله سبحانه وتعالى في نفسه، وفي الكون، وفي آياته المقروءة.

والمرتكز الخاطئ الثاني: أنه مُقَلِّد ومتابع لغيره ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ فهو متابع ومقلد لكل شيطان مارد. فتقليده وتأسيه ليس محصوراً في شيطان محدد ومعيَّن بل ﴿كُلَّ شَيۡطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ فكلمة ﴿كُلَّ﴾ تفيد الجمع والكثرة المتتابعة، وصفة هؤلاء الشياطين الذين يتتبعهم أنهم متمردين ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ فدلالة كلمة ﴿مَّرِيدٍ﴾ صفة للعاتي المستمر في تمرده، باتباع الباطل وجميع الشرور، فهو عاتي على الحق الذي جاءه من ربه تبارك وتعالى، ليشمل بذلك الوصف شياطين الجن والإنس، ورؤساء الكفر، فهو يشاقق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بناء على متابعته لكل شيطان متمرد. وبالتالي فإن أئمة الضلال هم من زمرة الشياطين المتمردين.

ثم يخبر ويبين سبحانه وتعالى عن حقيقة ما سيؤول إليه الذين يتولون هذه الشياطين المتمردة، الأمر الذي يستوجب على الناس اتقاءهم والحذر منهم ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فقد كتب الله تبارك وتعالى على الشيطان المتمرد، وعلى من اقتفى أثره، بما قَدَّره عليه؛ عقوبة له ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: من اتخذه ولياً ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ أي: يسير به في الطريق الهالك؛ الباطل، فيضل الشيطانُ من اتبعه عن طريق الحق والهداية، بتزيين الباطل، والتسويف الذي يجعله ينغمس ويُبحر فيه بقوة وعمق. فجعل سبحانه وتعالى من شرط متابعة الشيطان تحقق الإضلال المضاد للهداية ﴿مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ وكذلك يوصله إلى عذاب السعير ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيحمل من

اتبعه إلى ما يوصله إلى عذاب السعير، أي: عذاب جهنم الموقدة، والمستعرة. وفي هذا غاية التحذير لبني آدم من الشياطين، فقد كشف الله تعالى للإنسان حقائق إضلاله، بما يُوجب الحذر والبعد عن مساره. فاتخذوه عدواً لكم أيها الناس.

ومن جميل تتابع التوجيه وتناسقه في التأثير على الْمُخَاطَب، أن بدأ البيان في السورة الكريمة بشد الانتباه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ثم الأمر بالتقوى ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ ثم الإخبار بما يفيد الإنذار، مع التعظيم لما أنذرهم به ربهم تبارك وتعالى وأخبرهم عنه ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ لإعطاء الصورة الواضحة والبيان الكاشف لحالة المشهد، وإفادة التهويل والتعظيم، مع إضافة صفة العظمة لذلك الشيء الذي هو زلزلة الساعة ﴿ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم البيان بأشد ما يكون عليه الإنسان وهو في أقصى أغوار الشفقة وقوة المحبة والمودة ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ فتذهل المرضعة عن طفلها وهي في أقوى الحالات الممتلئة بقوة المشاعر من الحنو والشفقة في تلك اللحظة. ثم الكشف عن قوة حالة الهلع التي تصل بالمرأة الحامل أن يسقط حملها من غير إرادتها، في الوقت الذي هي في أشد حالات الخوف عليه، مع قوة الرجاء والتمني أن يكتمل حملها، ولكنه يسقط من غير إرادتها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ فيسقط الجنين من بطنها قبل اكتمال حملها من قوة الهلع الذي أصابها. ثم بعد التخصيص يتجه البيان وينطلق إلى كشف الحالة العامة للناس ذلك الوقت ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فحال الناس كحال من تعاطى المسكر.

وبالرغم من هذه المواعظ والتحذيرات، وقوة البيان والاستدلال بالحجج والبراهين، وتلك المشاهد التي كأن الْمُخَاطَب ينظر إليها؛ ويُعايشها، إلا أن هناك نوع من الناس في لهو عنها، وقد انغمس في طغيانه، غير مكترث بما وُعِظ به ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ ثم من رحمته عَزَّ وجل أنه ينذر هذا الإنسان ويحذره من علة وأسباب شقائه، وهو امتناعه وتمنعه عن الطاعة والامتثال ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فقد كشف الله تبارك وتعالى للإنسان عدوه، وهو الشيطان الرجيم، وأعوانه من رؤساء الشر، الذين أطاعوا إبليس، واقتفوا أثره. فإنه أسلوب قرآني قد تعاظم بيانه ووضوحه، فهو غاية في التنقل المتدرج في البيان، بما يقتضي انتباه الْمُخَاطَب، واستيقاظه من غفلته. مما يدل على عمق الإعجاز البياني في الأسلوب الخطابي، وبلاغة الإنذار وقوته، وإيضاح الحقائق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

ثم يتكرر من الله تعالى النداء لعباده، معلماً ومنذراً لهم؛ بما يؤكد وقوع البعث بعد الموت، بالأدلة التي يعيشون مشاهدتها في حياتهم، حتى أن مَشَاهدَهَا لا تغيب عنهم أبداً، فيقول تبارك وتعالى لعباده من الناس الذين في قلوبهم شك واشتباه من البعث بعد الموت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ فبدأ تبارك وتعالى الخطاب البياني بالنداء؛ كما بدأ به مطلع هذه السورة التي استهلها بمثل ذلك في شأن بيان أمر الساعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فهو نداء لكافة الناس، لإفادة تعظيم ما سيبينه لهم عَزَّ وجل، من معالجة شبهة الشك التي في قلوب الشاكين في شأن البعث. فخص هؤلاء الشاكين بما بعده من البيان، وهم الذين في قلوبهم ريبة من البعث ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ إن كان هناك ريبة في قلوبكم من البعث. وهو سؤال استنكار وتعجب. وهو مع بقية السياق يحمل النداء التعليمي والتقريري، والتحذير لهم، مع ما يحمل من الشفقة والرحمة بهم من أن ينالهم العذاب إن لم يستجيبوا له تبارك وتعالى.

وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يستدعي ويسترعي آذان الْمُخَاطَبِين للإصغاء، مع استدعاء عقولهم للانتباه إلى ما بعده من كلام وبيان، وفي هذا الأسلوب ما يستثير أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، مما يدل على أهمية ما ناداهم إليه ربهم وخالقهم تبارك وتعالى من البيان والإنذار، وما يجب

عليهم من الانتباه له بعناية واهتمام، وأن يأخذوه بكمال التعقل والانتباه. فالْمُنَادَى لَهُ هو إزالة الشك من عقول وقلوب الشاكين في أن الله تعالى يبعث من في القبور ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو خطاب عام للناس، مع تخصيص الشاكين به، فيزداد به يقين المؤمنين إيماناً، وتقوم الحجة به على من في قلبه شك.

كما أن فيه زيادة تعليم، ومنهج توضيح، ومعالجة للفكر والاعتقاد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو سؤال استنكار على من في قلبه شك من البعث بعد الموت. فإن كنتم في شك من أمر إعادتكم مرة أخرى للحياة بعد الموت، حيث يكون الحساب والجزاء على ما كان منكم في حياتكم الدنيا، فتأملوا وتفكروا في منطلق ومبدأ خلقكم، والمراحل التي يمر بها الإنسان في بطن أمه، ثم المراحل الظاهرة لكم من مراحل نموكم، فإن في تأمل ذلك ما يزيل الشك، لأن الذي أنشأكم بقدرته عبر تلك المراحل العظيمة في دقتها، فإنه قادر على الإعادة وفق المراحل التي سَنَّهَا، إذ ليست الإعادة بأعقد وأصعب من الابتداء.

وفي جملة ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ ما يفيد أن الأصل هو عدم الشك والريبة في ذلك، وأن الشك أمر طارئ، لأن الحقائق والشواهد تؤكد اليقين بالبعث، وتبين قدرته سبحانه وتعالى بأنه على كل شيء قدير. فهو أمر واضح بما أخبركم به الأنبياء والمرسلين، وما تتأملونه في الكون عموماً، وفي خلقكم، وفي أنفسكم من الدلائل. فإن كنتم مخالفين للحقيقة التي يلزم في الأصل أن تكون ثابتة في نفوسكم، فإليكم الأدلة والبراهين التي تتعايشون معها، وتعرفونها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فإن كنتم في ريب وشك وانعدام لليقين من البعث فتأملوا سنن خلقكم التي يزول بها ريبكم وشككم.

فتأملوا أولاً: أصل خلقكم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فإن أصل خلقكم الأول من تراب، بناء على أصل خلق أبو البشرية آدم عليه السلام الذي خلقه الله تعالى من التراب. فأعادهم سبحانه وتعالى بذلك إلى الأصل في خلق أبيهم آدم، بأنه خُلِقَ من التراب، ثم خلق زوجه حواء منه، ثم خلق أولاده منهما، فإنه عَزَّ وجل أعاد الْمُخَاطَبين إلى أصلهم الأول، وهو التراب. وهو الأصل الذي يدل عليه ويؤكده تحول أجسام بني آدم عند دفنهم إلى تراب، والذي يمثل أصله الأول، فإن هناك تجانس في الحقيقة بين مادة أصل جنس هذا الإنسان، وبين ما تتحول إليه رفاتهم، والتي يؤكد بعضها بعضا حقيقة أصل جنس الإنسان. وهذا من دقائق الإعلام والتفهيم، بأن يبدأ تعليم الجاهل من أصل المعرفة، ثم الترقي معه وبه إلى ما هو أعلى.

ثم يترقى بهم سبحانه وتعالى إلى ما يعايشونه من الخلق والتخليق، فيبين عَزَّ وجل المراحل المتتالية لخلق الإنسان في رحم الأم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من مني، وسُمِّيّ نطفة لقلته، إذ هي قطرة صغيرة. فهو

إيجاد بعد العدم من تلك النطفة. وبالرغم من صغر حجمها وضعفها فإنها تتحول بقدرته عَزَّ وجل إلى علقة ﴿ ثُـمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدم الجامد الذي تحول وتَكَوَّنَ من المني ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَـةٍ ﴾ ثم تتحول هذه العلقة إلى مضغة، وهي: اللحمة الصغيرة، قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: سُميت بذلك لأنها بقدر ما يُمضغ[١] ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَـةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَـةٍ ﴾ فإما أن تكون غير مخلقة. أي: غير ظاهرة الخلقة والتصوير، أو تكون ﴿مُّخَلَّقَةٍ ﴾ أي: ظاهرة الخلقة والتصوير. فهي بائنة الخلق، ظاهرة التصوير ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَـةٍ ﴾ أي: لم يَسْتَبِنْ خلقها، ولا ظهر تصويرها[٢] فأفنى الله سبحانه وتعالى بداية الخلقة قبل تمام تكوينه لها عَزَّ وجل، لتعلموا أن الشأن لله تعالى وحده لا شريك له. فهو المحيي؛ وهو المميت، وهو الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي. ليتأكد لكم أيها الناس، ويتبين أن القدرة على البعث أمر يسير على الله تعالى.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى عن لفظة ﴿مُّخَلَّقَةٍ ﴾: والتخليق صيغة تدل على تكرار الفعل. أي: خلقاً بعد خلق، أي: شكلاً بعد شكل. وذكر المخلقة قبل غير المخلقة لأنه أكمل للتدليل، والتنبيه على أن تخلفها نشأ عن عدم، فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء، وهو المقصود من الكلام[٣] وهذا من دقائق الاستدلال، وإعجاز مقاصد الترتيب.

ومن غزارة دلالة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَـةٍ ﴾ أنها تضمنت حالات الخلق جميعها في هذه المرحلة، فمن دلالاتها: أن المخلقة ما كان خلقاً سوياً، وغير المخلقة ما لم يكتمل خلقه بعد، فدفعته الأرحام، وألقته قبل أن يكون خلقاً. وقيل: تامة، وغير تامة. وقيل: معنى ذلك: مصورة لشكل الإنسان، وغير مصورة لشكله. فإذا صُوِّرَت فهي مخلقة، وإذا لم تُصوَّر فهي غير مخلقة. ورجح الطبري رحمه الله تعالى: أن المخلقة المصورة خلقاً تاماً، وغير مخلقة: السقط قبل تمام خلقه[٤] وهذه الأحول غير المتضاربة، التي حوتها دلالة السياق تعتبر من بلاغة البيان، وإعجازه التوضيحي للأحوال التي تكون عليها بتعبير وسياق واحد، مع تعدد الأوجه المقصودة، وهي من الإعجاز في بناء السياق.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن علة هذا البيان الذي تخفى عليكم مكوناته أيها الناس ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ لنبين لكم بهذا البيان كمال حكمتنا وقدرتنا على ما نشاء في نمو أحوال خلقتكم وتكوينكم في بطون أمهاتكم. واللام

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٧٩)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٤٣٦)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧/٣٥٥)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٦١-٤٦٣)

في ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ تفيد التعليل، وإظهار السبب. ليتبين لكم بذلك أن البعث حق لا جدال فيه، فتستدلوا بذلك على أن من بإرادته وقدرته سبحانه وتعالى ابتداء هذا الخلق بهذا التكوين العظيم؛ فإنه بقدرته إعادة الخلق بعد الفناء. فمن بسلطانه وقدرته وعظيم حكمته وصنعته خلقكم بهذه الأطوار، ومن هذه النطفة الصغيرة لتكونوا بهذه الأجساد الكبيرة المتحركة، وبهذه العقول المفكرة؛ فإنه لا يعجزه إعادة الخلق كما كانوا. فإين المشكلة، وأين مكان العجز. غير أنها في مخيلة المعاند المكابر.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن كمال قدرته في إقرار واستقرار من يكتب له ربه الوجود في الدنيا ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإنه سبحانه وتعالى يُبقي ويثبت في الأرحام ما يشاء إلى اكتمال مدة الحمل، فلا يَسقط فيكون سقطاً، بل يستقر في الرَّحِم، وبالتالي فإن الذي لا يقره عَزَّ وجل يُسقطه بقدرته ومشيئته. ومن يكتب له الوجود في الدنيا يُقرُّهُ في رحم أمه إقراراً واستقراراً لا يخرج به من الرحم إلا بعد اكتماله، فلا يخرج بسقوط، وإنما يخرج في موعده؛ بعد أن تتكامل خِلقته، وهو الأمد والزمن لمدة الحمل. فيكون تحديد وتعيين الأجل خاص بالله تعالى، فالذي جعل له الاستقرار والتمام قادر على إعادة بعثه بعد المات.

وأفادت دلالة ﴿وَنُقِرُّ﴾ التي وردت بصيغة المضارع المستمر، على حفظ الإقرار، واستمراره، واستمرار قدرته جَلَّ في علاه على حفظ ما أقره تبارك وتعالى، وهو الأمر الذي تُشاهدون وتُعايشون شأنه فيما تحمله أرحام نسائكم؛ من استقرار الحمل ثم الولادة. فإن شأن وأمر الإقرار وعدم الإقرار دليل واضح لكم على كمال مشيئته سبحانه وتعالى، وليس لكم شيء من القدرة في ذلك أبداً، كما تعرفون وتُقِرُّون بذلك.

ونسب سبحانه وتعالى الإقرار له عَزَّ وجل ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ ليلفت الانتباه إلى أنه هو المتصرف، والمتحكم سبحانه وتعالى، بما يفيد أنكم لا تستطيعون إقرار شيء من ذلك، فأنتم عاجزون تمام العجز، بل جعل ذلك وفق مشيئته واختياره وحكمته سبحانه وتعالى، حيث أضاف ﴿مَا نَشَآءُ﴾ إلى الإقرار ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ وليس وفق مشيئة المخلوق، أو مشيئة والدي المخلوق، بل تحت مشيئته سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن إرادتكم في إيجاد أنفسكم منعدمة، ومثله إرادة الأبوين، فإن الأمر كله لله تعالى. فلا أحد يقول بأنه أوجد نفسه، ولا والد ولا والده تقول بأنها أوجدت مولودها بإرادتها، وبالكيفية التي تريد، وسواء من ذكر أو أنثى. فيبقى الأمر لله عَزَّ وجل، فما الذي يمنع الْمُوجِد ابتداء من أن يعيد ما أوجد مرة أخرى بالبعث والنشور، فَمن أوجد الإنسان ابتداء، لا يعجزه إعادة ما أوجد بعد أن يفنيه بالإماتة.

بل حتى وجود المخلوق منكم فإنه إلى الوقت الذي يحدده خالقه تبارك وتعالى ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فجملة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تقرير منه عَزَّ وجل بتحديد الأجل والمدة التي يستقر فيها الجنين في الرحم حتى يخرج، بأنه إلى أجل مقدر ومعين. وهي مدة الإقامة التي يعيشها كل أحد من الناس في الرحم، فمنهم من يكمل تسعة أشهر، وهو تمام الحمل، ومنهم دون ذلك بأيام أو أسابيع، أو ساعات، ومنهم سبعة أشهر، فتقدير ذلك لله وحده لا شريك له، فهو الذي يقدره ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فليس لأحد أن يقرر ذلك، فهو أمر لله ربكم عَزَّ وجل وقاصر عن كل أحد من الخلق، والله تعالى هو المتحكم فيه فقط. فكيف من له الحكم كله أن تقصر إرادته عن بعث من يموت؟ فإنه بيان عظيم، وأسلوب حكيم، وقدرة عظيمة، وسلطان مهيب له عَزَّ وجل، يُثبت به أنه الرب، المالك، المتصرف الذي له الأمر والشأن كله، ولا يعجزه شيء في الدنيا ولا في الآخرة. مما يلزم العبد الانصياع لربه تبارك وتعالى بكمال الطاعة والامتثال.

ثم يبين سبحانه وتعالى المزيد عن قدرته ومشيئته وعظيم سلطانه ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وهي مرحلة الخروج من الرحم إلى الدنيا، بما يبين اكتمال أطوار الجنين في الرحم. وورد لفظ الطفل مفردا ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وذلك باعتبار الجنس المتضمن والشامل للواحد والجمع، وكذلك باعتبار الْمُخَاطَب ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ نخرجك أنت طفلا، ونسب سبحانه وتعالى الإخراج له، لبيان كمال القدرة والمشيئة، وأنه لا يخرجه طفلاً إلا هو سبحانه وتعالى، وبإرادته، وليس بإرادة الأم الحامل، فإنه ليس لها اختيار اليوم، ولا ساعة ولا حتى لحظة الولادة. حتى في المشافي؛ فإنهم يُخرِجُون الطفل بإرادته سبحانه وتعالى، فلو لم يرد ذلك لأماته عند إخراجه أو قبل أو بعد.

وأفاد حرف ﴿ثُمَّ﴾ الترتيب ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي بعد اكتمال أطوار خلقه في الرحم؛ فإنه يتم إخراجه إلى الحياة الدنيا طفلاً. والطفولة دلالة الضعف من كل وجه، في بدنه وفهمه وسمعه وحواسه، وحركته وتقلبه، وفي عقله وجهله، وانتفاء قدرته. ومع هذا عطف قلوب الأمهات شفقة ومحبة ورعاية لهذا الطفل، بل وتتحمل معاناة رعاية شؤونه. ومن عظيم قدرته ورحمته جَلَّ جلاله أنه أجرى وساق في ثديها طعام طفلها، فضلا منه تبارك وتعالى ورحمة وتدبيراً. ليعطي دلالة على عظمة قدرته وعظيم تدبيره ورحمته، بل وليس لقوة شفقتها وطمعها أي أثر، بل فضلاً منه ورحمة سبحانه وتعالى.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن قدرته ومشيئته فيمن يُكتب له مزيد عمر بعد ولادته ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ فمن له مزيد عمر قد أراده الله تعالى له، فإنه ينقله في تتابع إلى ما يشاء من مراحل نموه، ومنها

مرحلة الأشد ﴿ ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ﴾ والأشد هو: بلوغ مبلغ النكاح، واستجماع القوى الجسمية والعقلية، وحصول الرشد. وطور الأشد هو: المرحلة التي يبلغ فيها الرجل قوته الجسمية، وكمال عقله. قال الفيروزي أبادي رحمه الله تعالى: حتى يبلغ أشده أي: يضم أوله، أي قوته، وهما ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين سنة[١] وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: واحدة الأشد شِدَّة، والشدة القوة والجلادة، والشديد الرجل القوي، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: هو من نحو سبع عشر إلى أربعين، وقال مرة: هو ما بين الثلاثين والأربعين[٢] وقال السيوطي رحمه الله تعالى في سورة الأحقاف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ أشده: هو كمال قوته وعقله ورأيه، أقله ثلاث وثلاثون سنة، أو ثلاثون. ﴿ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي: تمامها، وهو أكثر الأشد[٣] مما يفيد أن الإنسان عموماً: إنما يَكْمُلُ رشده في سنوات هذه المرحلة. من سبعة عشر إلى الأربعين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن إرادته لبعض خلقه من الحياة ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ ومنكم من يتوفاه الله تعالى قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتوفاه الله تعالى بعد سن الأشد. فتشمل دلالة قوله تعالى ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ ما قبل وما بعد سن الأشد، لتستوعب جميع أطوار مراحل العمر التي تكون قبل وبعد الأشد. وبالتالي فإن منكم من يتجاوزه، ومنك من لا يتجاوزه، فالأمر ليس إليكم، بل هو لله تعالى. فليس لأحد أن يقرر عمره، وزمن حياته أبداً. فهو قاصر عن نفسه، والله تعالى هو المتحكم فيه. فكيف يعجز من له الحكم كله عن أن بعث من يموت؟ إنه بيان عظيم، وأسلوب حكيم، وقدرة عظيمة، وسلطان مهيب له عَزَّ وجل، يُثبت به أنه الرب، المالك، المتصرف؛ الذي له الأمر والشأن كله، ولا يعجزه شيء في الدنيا ولا في الاخرة. مما يلزم العبد الانصياع لربه تبارك وتعالى بكمال الإيمان والطاعة والامتثال. فمن كانت هذه قدرته وقوته وحكمه في أطوار عباده؛ أليس من قدرته أن يعيدهم كما خلقهم أول مرة؟ بلى. إنه على كل شيء قدير.

ثم يخبر اللهُ عَزَّ وجل عن بعض آجال عباده ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا ﴾ فإن منكم من يطول به العمر إلى هرمه وخرفه. ومنكم من لا يُرَد إلى أرذل العمر، فيتوفاه الله سبحانه وتعالى قبل ذلك، في أي مرحلة؛ وأي طور قَدَّرَهُ اللهُ تعالى له. وقد أكد عَزَّ وجل المد في العمر بوصف حالته، إذ سماه ﴿ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ﴾ وهو أطول أطواره ومستوياته، فليس بعده طور

(١) الفيروزي أبادي، القاموس المحيط (٣٠٥/١)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (٢٣٥/٣) ملخص

(٣) السيوطي، تفسير الجلالين (٥٠٤)

أبداً، إذ يفقد الإنسان في تمام هذه المرحلة قوته الجسمية، وقوته العاقلة بالتدريج، وكذا فكره ومنطقه، وإرادته، وحواسه، وفهمه، كما قال تعالى ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فيصبح بعد المعرفة، والمشورة وإبداء الرأي؛ لا علم يملكه عن الأشياء، فيفقد جميع ما تعلمه. والنتيجة من هذا البيان الرباني هو: إن كنتم في شك وريب من البعث فانظروا إلى مبدأ خلقكم، وتطور مراحله، وانتقاله من وجه إلى وجه، ومن حالة إلى حالة في بطون الأرحام، ثم تكوينه بعد الولادة. وما يحصل في كل مرحلة من الترقي في العقل والفهم، والقوة في الجسد، والطموح والإرادة، والتمني والرغبات المتفاوتة التي يمتنع عليكم التحكم فيها، بتقديمها أو تأخيرها.

فقد أوضح وبين سبحانه وتعالى في هذا البيان العظيم تفاوت العباد في العمر الذي ينقضي بالوفاة، وليس لأحد أن يتحكم فيه بأي حال من الأحوال، مما يبين عجز جنس الإنسان كله، حتى ولو اجتمعوا على إرادة إطالة عمر واحد منهم، ما استطاعوا جميعاً لذلك سبيلا. بينما قدرة الله تعالى متعاظمة في ذلك، فكيف لا تُقِرُّونَ بالبعث مع ضعفكم وقوة إرادة ربكم عَزَّ وجل.

وتفيد جملة ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ الإشارة إلى ما تمرون به من مراحل وأطوار عمرية حتى بلوغ الأشد، لتنتقلوا شيئاً فشيئاً من مرحلة الطفولة إلى بلوغ هذه المرحلة من القوة والجلادة والارتقاء، التي هي أبرز مراحل النمو من حيث بلوغ كمال القوة والنشاط والعزيمة، وكثرة المراد والتحصيل. وهي تفيد كذلك أن من لم يتوفاه الله تعالى في أحد المراحل السابقة للأشد فإنه يحصل ويصل إلى هذه المرحلة التي هي مرحلة الأشد ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ ومنكم من يموت قبل ذلك، ومنكم من يموت بعد ذلك، ومنكم من يصل إلى مرحلة أرذل العمر. وقد وردت ﴿مَّن﴾ التي تفيد التبعيض مرتين، الأولى: في قوله تعالى ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ لتعطي معنى التبعيض: ليس كلكم تنتقلون إلى المرحلة التالية مما أنتم فيه، فبعضكم يتوفاه الله تعالى، وكذلك ليس كلكم تموتون. ووردت الثانية في قوله تعالى ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ لتفيد ليس كلكم يُرَدُّ إلى أرذل العمر، بل بعضكم، كما يشاء الله تبارك وتعالى.

ومن دقائق البيان أن الله سبحانه وتعالى غَيَّب ذكر الفاعل في جملة ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ فكلمة ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ لم يتعين في سياقها الفاعل، وهو ما يسمى: ما لم يسمَّ فاعله، لتستوعب ويستوفي الآمر بالموت وهو الله تبارك وتعالى، والمباشر لأخذ الروح، وهو الْمَلَك، ونوع سبب الوفاة، وكذلك إبراز وإظهار الوفاة، والتركيز على من يقع عليه الموت، وإشغال ذهن الْمُخَاطَب بها عن الفاعل. مما يبين أن كل لفظة في

القرآن الكريم تحقق المقصد الذي أراده الله تبارك وتعالى، وتستوعب الدلالات المرادة بأوفى استيعاب، وهذا من إعجاز القرآن في مراده ودلالاته وبيانه.

وذكر سبحانه وتعالى فيما سبق الدليل المشاهد والمحسوس من ذات الإنسان على عظيم قدرة الله تعالى، والذي يُثبت ويكشف لكل منكر للبعث أنه عَزَّ وجل على كل شيء قدير، ومنها البعث والنشور بعد الموت والفناء. فإن في حالة خلق الإنسان وأطوارها، وتباين واختلاف موتهم ما يؤكد عظمة الخالق، وعظمة قدرته التي يَثْبُتُ بها البعث والنشور، وينتفي بها عدم التصديق به ونكرانه. ثم بعد ذلك الاستدلال من البيان؛ يعطف سبحانه وتعالى عليه تطور حياة الأرض، ومراحل هيئة حياتها التي يشاهدها الإنسان ويتعايش معها وعليها، فيتدرج بالعلم والتعليم للعباد مما هو ظاهر في أنفسهم إلى ما يتعايشون معه من الأرض، وذلك بأسلوب مؤثر في الفهم والذهن، مع انتقال عظيم، وعرض بديع. فقال عَزَّ وجل ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ فترى أيها الْمُخَاطَب الأرض بعينك التي تبصر بها، وهي في حالة الخمود وحين نُنَزِّل عليها الغيث من السماء بما نمطرها به، تراها تهتز بحركة سقوط المطر، وحركة الإنبات. فتحي بعد موتها. إن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يعتبر.

فلفت تبارك وتعالى الإنسان إلى التبصر في الأرض الميتة. فقال عَزَّ وجل ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ فترى أيها الْمُخَاطَب الأرض بعينك التي تبصر بها، وهي في حالة الخمود ﴿هَامِدَةً﴾ أي: لا حراك فيها. فإن كنتم في شك وريب من البعث فانظروا إلى مبدأ حالة الأرض، وهي ﴿هَامِدَةً﴾ أي: خامدة، لا نبت ولا حركة فوقها. ومن غزارة البيان في سياقه أن وردت كلمة ﴿وَتَرَى﴾ بصيغة المضارع، التي تفيد استمرارية الرؤية وتعاقبها، فلا تتوقف منك أيها المخاطب لهيئة الأرض؛ والتي لا تتوقف فيها حركة الحياة بالإنبات، وتغيُّر وجهها تبعاً لذلك، فتراها هامدة، ميتة، لا حياة عليها، ثم تزهو بعد الموت بالحياة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ فهذه الأرض الهامدة الجرداء، والخاوية من الزرع والحياة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ فحين نُنَزِّل عليها الغيث من السماء بما نمطرها به، تراها تهتز بحركة سقوط المطر، وحركة الإنبات ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت الأرض بما نزل عليها من الماء، لأن الماء يحرك الأرض، ويثيرها للإنبات. وكذلك تشمل دلالاتها اهتزازها ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ حركة الإنبات، وحركة النبات الذي يخرج منها، إذ لا يخرج الزرع إلا بعد تحريكه لما فوقه من تربة الأرض.

وكذلك تشمل دلالة الحركة حركة الزروع عليها، فيكون نسبة حركة الزرع للأرض بعدة اعتبارات: باعتبار أن الأرض هي الأصل الذي خرج منه الزرع، وباعتبار أنه هو الممسك للزرع عن الزوال بما يصيبه من الهواء. حتى أصبح الزرع مظهراً من مظاهر الأرض. فيا أيها الْمُخَاطَب إنك ترى حركة تتابع النمو على الأرض، وانتقاله من وجه إلى وجه، ومن حالة إلى حالة، وطور إلى طور كما هو نموكم في بطون الأرحام من طور إلى طور، ثم نمو أجسامكم بعد خروجكم من الأرحام، وهو نفس الشيء في الزروع والثمار، فكذلك شأن الزرع بعد خروجه فوق سطح الأرض. ثم التطور والعلو لذلك النبات في كل مرحلة من مراحل عمره، وهو ما يحصل لكم في كل مرحلة من الترقي في خلقكم وترقيكم في النمو الجسمي والفكري والعقلي، وفي الفهم والإدراك، وفي قوة الجسد، وارتقاء قوة الطموح والإرادة، والتمني والرغبات المتفاوتة. فهذه الدلالات والمشاهدات كافية في بيان قدرة الله تعالى على إعادة الناس بعد الموت إلى حالهم قبل الموت. كما أعاد للأرض الحياة بعد موتها. فأين وجه الاستحالة على الله تعالى؟ فإنها منعدمة أمام هذا الإيجاد والتكوين. فإنه لا مستحيل على ربكم تبارك وتعالى. فإن الإحياء بعد الإماتة ثابت فيما ترون من إنبات الأرض، ثم موتها، ثم إعادة الحياة إليها بعد موتها، بصورة متكررة أمامكم، من غير انقطاع ولا توقف.

ثم يذكر عَزَّ وجل الحالة الثانية من حالات الأرض في الإنبات، والتي تؤكد وتبين ما قبلها الذي هو الاهتزاز ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي: ارتفعت وانتفخت، فزادت طبقتها عما هي عليه، وهي الحالة التي تكون عليها الأرض عند بدء الزرع بالخروج من الأرض، فإن الطبقة التي تعلو الزرع تبدأ في الارتفاع والانتفاخ عما تحتها من الزروع. ثم تكون الحالة الثالثة ﴿ وَأَنۢبَتَتْ ﴾ أي: أخرجت، وأظهرت ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي: من كل صنف ما تبهج به النفوس؛ لما ترى من المناظر الخلابة في حُسنِها وجمالها. فالذي يحي الأرض بعد موتها، ثم يميتها، ثم يحيها مرات عديدة، كما يشاهدها الإنسان في حياته، فإنه قادر تبارك وتعالى على إحياء الإنسان بعد موته، مثل ما أحيا الأرض بالزرع بعد موتها.

أليست هذه القدرة الربانية كافية في بيان البعث بعد الموت؟ وأنها حقيقة كما ترونها في الأرض التي تتكرر فيها الحياة والموت، وتجدد ذلك أمام أعينكم وبصائركم. فإنها الحقيقة التي تكشف وتبين لكم أيها الناس حقيقة البعث، وحقيقة كمال قدرة الله تعالى، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. أبعد هذا البيان تُنكرون البعث؟ فإنه بيان كامل وشاف وواف، يصحح للعباد جهلهم بآيات وحجج الله تعالى التي يرونها بأعينهم، ويتعايشون معها طيلة حياتهم. فسبحان الله العظيم الخلاق الكريم. آمنت بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم. إنه استعراض بديع، بأسلوب وحجج واضحات بينات وكافيات في إثبات البعث بعد الموت. غزارة في البيان كما هي غزارة في القدرة.

وبعد استعراض الحجج والبراهين القطعية التي تُثبت البعث بعد الموت، يقرر سبحانه وتعالى أن ذلك المذكور من حقائق أطوار خلقكم، وإحياء الأرض هو دليل واضح وبرهان قاطع على أن الله تعالى هو الاله الحق الذي لاشك ولا ريب فيه، والذي يجب عليكم طاعته ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ينبه الله سبحانه وتعالى عباده بما بينه من أطوار خلق الإنسان وفنائه، وإحياء الأرض بعد موتها إلى أنه المتصرف الوحيد في هذا الكون، وأن الأمر كله له جَلَّ جلاله، فذلك دليل وبرهان واضح على أنه هو الرب المعبود، والإله الحق الذي يجب أن لا يُعبَد إلا هو وحده لا شريك له ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فإن ذلك المتقدم مما أخبرناكم به من الآيات والقدرة، إن فيه لدلالة واضحة وقاطعة بأنه سبحانه وتعالى هو الإله الحق، وأن كل موجود مفتقر إليه، وأنه المسخر لها وفق إرادته عَزَّ وجل، وأنه المتفرد بإحياء الموتى ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ فَيُثبِت سبحانه وتعالى ويبين لعباده أنه محي الموتى، ليتأكد لهم البعث والحساب والجزاء، فخذوا حذركم مما أنتم قادمون إليه، وذلك بطاعته بما أمر في شرعه الحكيم، الْمُنَزَّل على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم.

ثم يصف سبحانه وتعالى قدرته على وجه العموم ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فإن سلطان ربكم وقدرته عَزَّ وجل على كل شيء ثابتة، فلا شيء يمتنع عن إرادته، وعن حكمه، وعن مشيئته، فإن قدرته سبحانه وتعالى مطلقة، لا يقيدها شيء أبداً ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ففي ذلك إثبات كمال القدرة النافية لأدنى عجز. فإنه جَلَّ في علاه على كل شيء قدير، مما يستوجب معرفتكم لربكم حق المعرفة، التي تستوجب منكم كمال الامتثال لما جاءكم من ربكم.

ثم بعد بيان كمال قدرته سبحانه وتعالى، وما سبقه من كمال البيان؛ يعطف عَزَّ وجل على ذلك أن مجيء الساعة حق لا ريب ولا شك فيه ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فالساعة التي تقدم البيان عنها قادمة ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ لا شك في وقوعها، ولا محيل عنها أبداً، ثم يؤكد تبارك وتعالى بعثه لعباده بعد الموت ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فإنه سبحانه وتعالى يخرج من في القبور، ويعودون للحياة مرة أخرى، ليكون الحساب والجزاء.

ومن بديع السياق وقوة تأكيده للبيان، هو تكرار حرف التأكيد **(أن)** خمس مرات، أمام كل حقيقة ذكرها سبحانه وتعالى، فأكد بها أنه الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ وأكد بها أنه يحي الموتى ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ

ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ وأكد بها أنه على كل شيء قدير ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وأكد بها قيام الساعة ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ وأكد بها أنه يبعث من في القبور ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فكل بيان هو حقيقة مؤكدة بلا ريب ولا شك، ومُوجِبة للتصديق والإيمان. وبأسلوب قوي في بيانه، وفي إقامة الحجج والبراهين، فسبحان الله العظيم، المحيي المميت، الذي أعجز ببيانه خلقه، كما أعجزهم بتدبيره وما خلق، وبما أنزل من التشريع الذي يشهد بأنه لا يكون هذا إلا من خالق عظيم، ذو سلطان مهيب، يحي ويميت وهو على كل شيء قدير.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

يخبر الله تبارك وتعالى عن أصناف من الناس في تعاملهم مع الحق: فمنهم الذين يتخذون الجدال مطية لمرادهم وأهوائهم. ومنهم الذين يعبدون الله تعالى على حرف، وهو الطرف والحافة، فهو على طرف من الدين. أي: على شك. فكل شاك في شيء فهو على حرف. فقال الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ فهذا النوع من الناس يخاصم ويحاج ويعاند ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في شأن الله تعالى؛ بناء على مرتكزين خاطئين: المرتكز الأول: الجهل، فهو ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ والمرتكز الثاني ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ فهو مُقلد ومتتبع لغيره من الشياطين، بل متتبع لكل شيطان عاتي متمرد، فيشمل شياطين الإنس والجن. فهو يشاقق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والنوع الثاني: هو المغرور المتكبر، الذي لا يحمل شيئاً من العلم والهدى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ فهو مغرور بجهله وجاهه وعقله ومكانته بين قومه، فهذا النوع من الناس فاقد للعقل الصحيح السليم، وفاقد للنقل الصحيح الصريح، وبالتالي فإنه فاقد عقل الرشد، الذي

ينقاد به إلى الحق، ويبتعد به عن الباطل، وأما عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف فهو قوي صحيح. وهو عقل التكليف الذي يميز به بين الخير والشر، والحق والباطل. فجدال هذا النوع خالي من جميع الأدلة والأسانيد. ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ ﴾ فبعض الكفرة من يجادل القائمين على الحق، من المرسلين، والراسخين في العلم، بجدال بالباطل، من غير مستند ولا دليل عليه، فمراده إدحاض الحق وغمطه، وأما موضع مجادلته فهو ﴿ فِي ٱللَّهِ ﴾ في شأن الله سبحانه وتعالى، سواء في صفاته أو أسمائه، أو في شرائعه الواضحة الجلية البينة ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ أي بالجهل الذي هو ضد العلم ﴿ وَلَا هُدٗى ﴾ ولا رشاد ولا مرشد له في الحق، بما يفيد أنه متبع لهواه الضال ﴿ وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ وليس عنده كتاب معتمد واضح يعتمد عليه، فليس عنده حجة وبرهان نقلي، فمرجعه فيما يجادل فيه هو الرأي المبني على الهوى، ومحبة الظهور أمام الخلق، وتكوين الاتباع، والتباهي بذلك.

ومن مزيد صفات هذا النوع من الناس ما بينه قوله تعالى ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ فهذا النوع يلوي عنقه، أي رقبته، فيثنيها عن الحق، اعتراضاً وتهكماً وتطاولاً ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ ﴾ فهو معرض عما يُدْعَى إليه من الحق، فيلوي رقبته أي: عنقه إعراضاً وتكبراً عن الحق، وشموخاً بنفسه وباطله، متعالياً بذلك على الحق الذي فيه نجاته وخلاصه، فهو مستعصي على نجاته وفلاحه، وبالتالي مستعصي عن الانقياد لنفسه. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: والعرب تقول: جاءني فلان ثاني عِطفه، إذا جاء متبختراً من الكبر[١] مما يفيد أن الكبر يُبعد صاحبه عن قبول الحق، فيلوي عنقه إعراضاً عن دعوة الحق، فلا يسمع ما يُقال له؛ وذلك أنفة واستكباراً. وهذا التحليل الرباني العميق لبعض النفوس؛ يكشف حقيقة بعض الناس، والذي مفاده: أن من واجب الإنسان أن يتنبه لذلك من نفسه، وأن يروضها للحق من أي مصدر كان، ولا تأخذه العزة بالإثم.

وغاية هذا النوع هو الانحراف بالناس عن مراد الله تعالى ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ليكون من الدعاة إلى إفساد الناس بإضلالهم، وإبعادهم عن سبيل الله تعالى، الذي هو سبيل الفوز والنجاة، فيدخل في ذلك جميع من يحب الانتصار لنفسه وهواه على الحق؛ من دعاة الضلالة والكفر أو الشهوات أو الشبهات. ولهؤلاء عقوبتان: الأولى في الدنيا، والثانية في الآخرة ﴿ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ ففي الدنيا له عذاب الألم النفسي ﴿ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ ﴾ فله جميع أنواع العار والخزي الذي هو:

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٩/١٦)

الإهانة والذل. وهي أشد أنواع العذاب النفسي، الذي سيعانيه ولا يستطيع دفعه ولا رده عن نفسه، ولا يستطيع الهروب منه، فتكون الإهانة ملتصقه به. بافتضاحه والنكاية به، فتجد له المقت والبغض والذم من أهل الحق، وذلك بما يواجهون به باطله من الحق الذي معهم. وجاء لفظ الخزي عاماً، ليستوعب جميع انواعه ودرجاته وشدته. وأما في الآخرة فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ وهو عذاب جهنم، وهو الإحراق بالنار يوم القيامة. وفي هذا تحذير لكل من يناكف الحق بالباطل، ويجادل الصواب بالخطأ. بل يلزم التواضع للحق، والأخذ به. وبجميع ما جاء عن الله تعالى، فإنه عين الحق والصواب.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بعلة وسبب عذابه في الدنيا والآخرة ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ فذلك العذاب بسبب ما تقدم منك من مجادلتك للحق بالباطل، وهو معنى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فإن اسم الإشارة متعلق بأفعاله وما نزل به من عذاب الدنيا والآخرة، فإن العذاب النازل به هو ﴿ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ ﴾ بسبب ما أسلفت وقدمت به يداك من الكفر والمعاصي، ومحاربة الحق بالجدال الباطل، الذي افتريته.

وأسند سبحانه وتعالى ما نزل به من الخزي والمهانة والعذاب إلى يديه، باعتبارهما الوسيلتان الأكثر مباشرة لأغلب لمعاصي. ثم يبين سبحانه وتعالى كمال عدله ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ فإن الله تعالى ليس بذي ظلم لعباده، فيعذبهم بغير ما اكتسبوا من المعاصي. فما إخباره بذلك عَزَّ وجل، وإرساله الرُّسُل إلا من رحمته، وإرادته الخير لعباده. بل وردت كلمة ﴿ بِظَلَّٰمٖ ﴾ بصيغة المبالغة، التي تفيد التناهي في الْبُعد عن الظلم، كما أنها وردت مسبوقة بحرف التوكيد ﴿ وَأَنَّ ﴾ التي تؤكد ما بعدها من البيان، فتؤكد نفي ما نفاه الله تعالى من أن يظلم أحداً من عباده. فهو نفي قطعي من أن يحصل الظلم من جناب الله عَزَّ وجل لأحد من عباده.

والصنف الآخر: هم من اتصف بالتشتت، وعدم الاستقرار والاطمئنان في الدين، فهو مصاب بالقلق والاضطراب في إيمانه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فهناك فئة من الناس تكون عبادتهم لربهم تبارك وتعالى على غير يقين وثبات؛ ولا تمكن ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾ والحرف هو الطرف والحافة، فهو على طرف من الدين. قال مجاهد وقتادة: على شك. وقال أبو عبيدة: كل

شاك في شيء فهو على حرف، لا يثبت ولا يدوم[١] فتكون عبادته على شك، وعدم يقين، ويُفَسِّر ويُفصح عن معناه ما بعده من البيان ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ فإن ناله خير من أمور الدنيا اطمأن لدينه ولعبادته التي يؤديها ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ فحصل له الثبات والاستمرار على طاعة الله تعالى. ومن جميل البيان ورود لفظ الخير هنا عاماً، ليستوعب ويشمل أنواعه ودرجاته.

وأما إن أصابه ما يكره من أمور الدنيا تخلى عن دينه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ فإن أصابه ما يكره من أمور الدنيا العارضة، وهي الحالة والوجه الآخر من أحوال الدنيا تراجع اطمئنانه، وحصل له الارتداد ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتد وانقلب على ما كان عليه من الكفر. ووردت الفتنة بلفظ العموم، لتستوعب اختلاف أوجهها، فقد تكون في الجسد، وقد تكون في الولد أو المال، أو في غير ذلك من أمور الإنسان المتنوعة، وسميت فتنة لأنه يحصل بها الاضطراب والفحص والتمحيص، ولأنها تختبر الإنسان، وتمحصه، فإما يثبت أو ينقلب ويتغير ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ والانقلاب على الوجه هو الارتداد والتراجع إلى الجهة والوجه الآخر الذي كان عليه قبل إسلامه وهو الكفر. وفي هذا تشخيص عميق، وبيان دقيق؛ لأدق الحالات القلبية عند بعض الناس، والتي يجب على العبد أن يحذر ويتوقى منها، ويكون ذلك التوقي بالعلم الشرعي، ومنه الجانب الاعتقادي الذي يهذب النفس، ويعلمها أن الحياة الدنيا دار ابتلاء، بالخير والشر، فيكون بالخير ليتبين حاله في الشكر والحمد واسداء النعمة للمنعم، ليتبين أيظهر منه الشكر لربه تبارك وتعالى أو لا. وقد يكون بالابتلاء فيما يكره، أيصبر عليه، ويثبت على دينه، ويلتجئ إلى الله تبارك وتعالى، أم يسخط ويتذمر، وينتكس؟ فإن في الآية بيان وتحليل لحال هذا النوع من الناس. وفي نفس الوقت فيها إرشاد وتحذير لكل أحد من الناس من مسلك الحرف.

ثم يقرر سبحانه وتعالى جزاء من كان هذه حاله مع ربه ودينه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ فإنه لا نصيب ولا حظ له في الدنيا من التوفيق والعناية الربانية من الله تعالى به، ولا حظ له في الثناء، ولا نصيب له في أن يكون قدوة صالحة، بل أصبح قدوة وأسوة سيئة. وفَقَدَ كذلك الحظ الحسن في الآخرة ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ فلا حظ له مما أعده الله تبارك وتعالى لعباده الصالحين من الثواب العظيم. وورد الخسران هنا عاماً ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ بما يفيد انتفاء الربح بتاتاً، مع تحصيل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٨٢)

الخسارة بكاملها، فإنه لم يتحقق له فيها ربح أبداً، مما يفيد أن الربح الحقيقي في الدنيا هو ما يقربك إلى الله تعالى، لتتحصل به على ربح الآخرة، وأما المرابح الأخرى من الدنيا فهي وقتية، وسرعان ما تزول، أو يزول عنها صاحبها بموته. وقد سماه الله تبارك وتعالى بالخسران الواضح ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فهذا الخسران هو الخسران الواضح البيِّن خسارته، والذي لا يخفى على أحد، لأنه لا شبهة فيه. إذ يُدرِكُه ويعرفه العاقل بأدنى تفكر وتأمل.

ومن جميل البيان أن الله تعالى لم يقل: ذلك الخسران المبين، من دون ﴿ هُوَ ﴾ بل قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فأفاد اسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ التعيين بأن هذا الخسران المذكور هو أظهر صور وأشكال الخسران الذي لا لبس فيه من شدة وضوحه. ليفيد التأكيد بالحصر والقصر على أن الخسران الحقيقي هو من فقد عبادة ربه تبارك وتعالى. فأوضح عَزَّ وجل لعباده أن الربح الحقيقي هو أن تكسب مرضاة الله تعالى بطاعته، وأن يثبت المسلم أمام المتغيرات في الحياة، وألا يُفتن بها، بل يصبر على ما يصيبه، ويشكر ربه على ما أعطاه، فيكون حاله قائم على الصبر والشكر. اللهم وفقنا وثبتنا، وارضنا وارض عنا.

ثم يبين سبحانه وتعالى المزيد من الحقائق عن هذا الذي انقلب على وجهه، ورجوعه إلى ما كان عليه من الكفر، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ فإنه يتوجه بالدعاء إلى غير الله تعالى من الأصنام والأوثان التي لا تضره إن ترك عبادتها، أو أساء إليها، ولا تقدم له نفعاً إن توجه إليها بالطلب والمسألة، فهي لا تُقدم ولا تؤخر، ولا تعطي ولا تمنع. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الدعاء منه لها ﴿ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ هو الضلال البعيد عن الحق، فهو بُعد سحيق طويل متباعد عن الحق، وعن كل رُشد، وموغل في الباطل.

ثم يزداد البيان والتأكيد ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ فإن هذا الكافر الذي يدعو تلك المعبودات من دون الله تعالى فإنه يدعو من ضررها أقرب إليه من نفعها ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الجملة مقررة لما قبلها، من كون ذلك الدعاء ضلالاً بعيداً. والأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال، بل هي ضرر بحت لمن يعبدها، لأنه دخل النار بسبب عبادتها، وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حال ذلك الداعي[1] فبالرغم

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٤٤٠)

من أنه لا نفع فيها البتة إلا أن الله تعالى يحاكي الْمُخَاطَب بما يعتقد، لإيصال البيان له في الصورة التي يظنها، فهذا فيما إن كان في عبادتها نفع كما تتخيله أيها المشرك.

فهذه الآية مبينة لما يصيب الداعي؛ المتقرب للمعبودات من الأصنام ونحوها، والراجي منها ما يحب، فإنه ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ فهو يدعو لمن ضرره عليه متحقق أكثر مما يتوقعه من تحصيل منفعة منها. فتقرر الآية الكريمة أن ضرر هذه المعبودات على من عبدها هو أن مصيره إلى النار، والذي هو أقرب من أن تناله منفعة فيما يظنه من النفع، وهذا فيما لو كان فيها نفع، فكيف وقد انتفى منها القدرة على منع الضرر وتحقيق النفع في ذاتها ولغيرها، فإن الضرر والنفع منها منتفي البتة ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُـرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيـدُ ﴾ فهو يدعو من غير الله تعالى من انتفى منه منع الضر وجلب النفع.

ولما كان تَقَرُّب من يدعو الأصنام على أساس أنها تنصره، وأنها بمثابة العشير الذي ينفع عشيره، فإنه يوم القيامة يكتشف من يدعوها أنها لم تقدم له ذلك النصر الذي يتوقعه، ولا الخير الذي كان يرجوه ويأمله، فلم تدفع عنه شراً ولم تجلب له خيراً، فيكون حاله ذلك الوقت هو قوله لمعبوداته من دون الله تعالى ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ فحاله معها هو حال من يقول لمن تخلى عنه ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ لبئس المعبود الذي كنت اعتقد أنه ينصرني ويؤازرني ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ وبئس العشير الذي هو الصاحب والرفيق، فبئس الذي لازمت صحبته كل ذلك الوقت، فهو عذاب نفسي مع ما سيناله من العذاب الحسي.

وقد ورد الإيضاح من الله تبارك وتعالى عن قوة الأثر السيء لتلك المعبودات على عابديها بأقوى دلالات الذم، وهي ﴿وَلَبِئْسَ ﴾ فهي مستوفية لكمال الذم، كما أن "نعم" مستوفية لكمال المدح. فبئس من انخدعتُ بِنُصْرَتِه، وبئس الذي لازمتُ صحبته، فخذلني. وكلمة بئس، من البؤس الذي يمثل وصف سوء الحالة. وفي هذا ترهيب من سوء المآل لمن اتخذ إلهاً من دون الله تعالى. وهذا البيان من الله تعالى يربي في الْمُخاطب الانتباه، وحبس النفس عن هواها المنافي لرضوان الله تعالى. وأما بالنسبة للمؤمن فإن هذا البيان يقمع به ما يطرأ عليه من التشتت والريبة عند رؤية الشبهات، أو المرغوبات من الشهوات التي له طمع فيها ورغبة. فيقمع بها نفسه حين تضعف مقاومته لها، فإذا تذكر المآل انكفأ عن مراده الخاطئ. وهذا يفيد أهمية بيان العقوبة وحجمها للمعني بها، حتى تكون رادعاً له، وأنها حجة قائمة عليه. فكلمة ﴿وَلَبِئْسَ ﴾ تحمل جميع معاني الذم. فبئسما اعتاضوا به لأنفسهم، ورضوا به وعدلوا إليه من عبادة غير الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى حال الكافرين ومآلهم، ينتقل السياق الكريم إلى بيان ثواب وجزاء المؤمنين؛ الذين اجتهدوا في طاعة الله تعالى، فجمعوا بين الإيمان وبين عمل الصالحات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فإن الله تعالى بكرمه وجوده يُدخل عباد المتصفين بالإيمان وعمل الصالحات جناته في الآخرة، فالصفة الأولى، هي: الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: المصدقين بكل ما جاء عن الله تعالى، وعلى رأسها التصديق بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم. والصفة الثانية ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهو العمل بدين الله تعالى، والذي زكاه رب العالمين بأن مضمونه كله صالحات. سواء فيما يتعلق بعلاقة العبد بربه، من الطاعات والعبادات، أو ما يتعلق بعلاقة العبد بغيره من العباد على جميع مستوياتهم وأنواعهم. فإن من آمن وعمل بدين الله تعالى، وابتعد عن المنكرات، فإن الله تعالى يدخلهم ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فهي بساتين تجري من تحتها الأنهار، في جريان لا ينقطع، ولا يضعف. إذ تتخللها أنهارها مروراً من أسافلها من غير انقطاع. وأما حياتها فهي خلود دائم لا ينقطع ولا ينتهي ولا يزول. ثم يعلل سبحانه وتعالى سبب هذا النعيم المقيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فهو يفعل جَلَّ جلاله ما يريده من الأفعال، لعظيم سلطانه، وسعة عطائه، وكرمه الذي لا ينقص بالعطاء، فكل شيء ملكه، فَيُثِيبُ من يشاء بما يشاء، ويعاقب من يشاء بما يشاء، فلا معقب لحكمه.

ثم يخاطب الله تبارك وتعالى كل من يعتقد ويتمنى هزيمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، نتيجة حقده وحنقه وكرهه للحق، فإن الله تعالى يخبر وينذر هذا الكاره المبغض بفصل الخطاب في هذا الشأن العظيم، وهو

قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ فلكل أحد يعتقد ويضمر في نفسه أن الله تعالى لن ينصر نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولن يُظهره على الدين كله ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ فعلى هذا الكافر المعادي لرسوله صلى الله عليه وسلم، ومتمنيا ومعتقداً أن الله سبحانه وتعالى لن ينصر نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ أي: يطلب. فعليه أن يطلب ﴿ بِسَبَبٍ ﴾ بعلة وحيلة ووسيلة ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فيصل بهذا السبب والوسيلة إلى السماء ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ثم ليقطع هذا النصر النازل من الله تعالى من السماء، فيمنعه عن تحقيق النصر لنبيه صلى الله عليه وسلم.

فإن أراد قطع هذا النصر فعليه إن يتهيأ له بذلك من السماء ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ ثم فليتأمل ويفكر وينظر ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ هل يَذْهَب هذا الكيد بمشاعره من الغيظ، فيزيله عنه؟ هل حيلته تستطيع أن تذهب بغيظه وتزيله؟ وفي هذا بيان لاستحالة ما يتمناه الحاقد الحانق على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فليتأمل هل كيده هذا يحقق له إزالة غيظه، بهزيمة النبي صلى الله عليه وسلم، فيتحقق له مراده وما يتمناه. فإن عجز عن ذلك، فلم يتحقق كيده بهذه الحيلة وهذه الوسيلة، وبقي غيظه في قلبه فإن معناه أنه استحال عليه أن يصل إلى وسيلة يقطع بها النصر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي باء كيده بالفشل، وتحقق نصر الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والتسليم. فلما أن الكائد والكاره للنبي صلى الله عليه وسلم يسعى في طلب المستحيل، فإن الله تعالى قد أشار إليه بمثل ذلك من الاستحالة، فأشار إليه في القرآن الكريم إلى الطريقة المستحيلة عليه، ليؤكد لهذا المُبغِض والمتمني الشر لدين الله تعالى، ولنبيه صلى الله عله وسلم أنه يسعى في مستحيل، فما عليه إلا أن يُطفئ كيده ويتعقل، لاستحالة تحقق مراده وأمنياته.

ومن غزارة فوائد هذا البيان الكريم: أن دين الله تعالى ماض، وأن أمر وشأن رسوله صلى الله عليه وسلم متحقق، وأن كل معادٍ لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولدينه فإنه محزوم ومنهار ومتلاشي، فما عليه إلا أن يبتعد عن ذلك، أو أن يدخل في دين الله عَزَّ وجل. وفيه بيان بأن الله تعالى إذا أراد شيئاً هزم كل من يعادي مراده عَزَّ وجل. وأن على المسلم أن يستعين ويستغيث بالله تعالى، فإذا كان الله عَزَّ وجل معه فقد انهزم أمامه كل معادٍ له، وذُلِّلَت له كل الصعاب أمام تحقيق مراده. لأن من أراد الله تعال تحقيق شأنه

له، فإنه يزيل ويمحو عن طريقه جميع الصعاب والعوائق، ويزيد له في التسهيل والتيسير، بل يزيد اليسير يسراً، والسهل سهولة.

ومن جليل فوائد الآية الكريمة كذلك، هو تقريب الصورة والفهم للمخاطب، بما يوضح له الحقيقة على الوجه الذي يفهمه. إذ وضح وبَيَّنَ له سبحانه وتعالى استحالة أن يمنع الحاقد ما أراده الله سبحانه وتعالى بصورة مستحيلة في تحقيقها وإنفاذها؛ كما هو مستحيل تحقيق الهزيمة لدينه ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وفيها كذلك توسعة دائرة الأفق والخيال، ليتصور الحقيقة على ما هي عليه بأقرب مثال وصورة وحدث يمكن للإنسان أن يتفاعل معه ويدركه إدراكاً واضحاً، مما يبين أن من وسائل التعليم ضرب الأمثال للتسع دائرة فهم المتلقي والمتعلم.

ومن سعة فيض دلالة الآية الكريمة، وتنوع فوائدها، وكثرتها؛ أن المراد بالسماء يأتي على وجهين: الأول: أنها السماء المعروفة. والوجه الثاني: أنها سماء المنزل، أي: سقفه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من كان يظن أن لن ينصر اللهُ محمداً فليربط حبلاً في سقف، ثم ليختنق به حتى يموت[١] فليعلق حبلاً في سماء البيت ثم ليختنق حتى يموت. ومعناه ليتخيل إيقاع ذلك الأمر على نفسه، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ومعنى الآية: ليصور هذا الأمر في نفسه، لا أن يفعله، لأنه إذا اختنق لا يمكنه النظر والعلم[٢] وقال ابن زيد رحمه الله تعالى: من كان يظن أن لن ينصرَ اللهُ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويكايد هذا الأمر، ليقطعه عنه ومنه، فليقطع ذلك من أصله، من حيث يأتيه، فإن أصله في السماء، فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه من الله تعالى[٣] وقيل أنها في حق الذين انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن أرزاقهم ما اتسعت[٤] وهذان الوجهان وغيرها من الأوجه؛ إنما هي من سعة دلالة النص الكريم، ولا تضارب بينها ولا تعارض، فجميع المعاني صحيحة ومؤتلفة. وفي هذا ما يبين أن قوة الدلالة أحياناً في سعتها، لتستثير العقل في التدبر والتفكر، فيخرج منها المتدبر بفيض من المعاني التي تتسع بها دائرة الفهم عند المتلقي. وهذا وجه من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.

ومن سعة دلالة الآية الكريمة أن حرف الهاء في قوله تعالى ﴿يَنصُرَهُ﴾ له ثلاثة أوجه. الأول: أنه يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أي: من يعتقد بتوهمه أن لن ينصر الله رسوله فليخرج بحيلة إلى السماء، فيمنع نصر الله تعالى عنه إن استطاع ذلك. ليفيد الاستحالة، وليفيد تحقق انتصار النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٨٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٨٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٧٩)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٨٣)

والوجه الثاني: أنه يرجع إلى الرزق، وذلك بعودة الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ إلى ﴿مَن﴾ التي في صدر الآية الكريمة. فيكون المعنى، هو: من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب إلى سماء البيت، ثم ليختنق، فلينظر هل يذهبن فعلُه ذلك ما يغيظ، أنه لا يُرزَق، قال بذلك مجاهد رحمه الله تعالى(١) وهذا على أساس سبب النزول، بأنه تباطأ أسد وغطفان عن الدخول في الإسلام، خوفاً من أن لا يُنْصَر محمد صلى الله عليه وسلم، فيفقدون بذلك ما بينهم وبين حلفائهم من اليهود، ومنها الميرة، وهو الطعام. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى قول من قال: هم الذين انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن أرزاقهم ما اتسعت(٢) وعند القرطبي رحمه الله تعالى في هذا المعنى: من كان يظن أن الله لا يرزقه فليختنق، فليقتل نفسه؛ إذ لا خير في حياة تخلوا من عون الله. والنصر على هذا القول: الرزق. تقول العرب: من ينصرني نصره الله، أي من أعطاني أعطاه الله. ومن ذلك قول العرب: أرض منصورة، أي: ممطورة(٣) والوجه الثالث: أنها تعود على الدين، قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل إن الهاء تعود على الدين، والمعنى من كان يظن أن لن ينصر الله دينه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل. والسبب ما يتوصل به إلى الشيء ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى سقف البيت(٤) فيتبين من هذه الدلالات الثلاث سعة المعطيات لأوجه الآية الكريمة، ورحابة استيعاب معانيها للأوجه المتظافرة، والتي لا تضاد بينها، فأعطت أوجه دلالاتها فوائد متنوعة، ومتقاربة. وهذه من غزارة معاني القرآن الذي يدل على إعجازه البياني العظيم. بل ومن جميل البيان وقوته وتعاضده أن أتت الآية التالية مدحاً وثناء وتمجيداً للقرآن الكريم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾

يقول تبارك وتعالى مادحاً لكتابه العزيز، القرآن الكريم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ فكما فصلنا في هذا القرآن التفصيل الواضح في لفظه ودلالاته ليكون حجة من الله تعالى على عباده، فإننا أنزلنا القرآن آيات مفصلات في البيان والإيضاح، بما يدل على أن القرآن العظيم قد بلغ الغاية في الحجة ووضوحها. وأن الله سبحانه وتعالى يهدي من يريد. فدلت ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق من آيات القرآن العظيم، فمثل ذلك الذي تقدم من آيات القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٍۭ

(١) انظر، الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٢/١٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٣/٥)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٢)

(٤) المرجع السابق (١٦/١٢)

﴿ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات في لفظها ومعناها ودلالاتها الحكيمة، وتوجيهاتها السديدة، لتكون حجة على الناس من ربهم تبارك وتعالى. وفي هذا تأكيد بيان على احتواء القرآن الكريم على الحجج البالغة في إثبات جميع ما أراد الله تعالى إثباته، وأن القرآن العظيم مستوفي للمطالب النافعة، وإبطال الفاسدة.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة ببيان قوة سلطانه، وكمال إرادته في هداية من يشاء ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴾ فإن الله تعالى يختص من يشاء بهدايته وتوفيقه. مما يؤكد افتقار العبد لهداية ربه ومولاه عَزَّ في علاه، فليطلبها منه عَزَّ وجل، لا من غيره. كما يؤكد ذلك عظمة سلطانه وهيمنته وإرادته جَلَّ جلاله، وأنه لا معقب لحكمه، فإنه يفعل ما يشاء سبحانه وتعالى.

وبعد بيانه تبارك وتعالى فيما مضى عن أحوال وأنواع المكذبين بدين الله تعالى، يوضح جَلَّ جلاله مصير هؤلاء الكفرة، وجميع الفِرَق يوم القيامة، بأن الله تعالى سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه. فأهل الجنة يدخلون الجنة، وأهل النار يدخلون النار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ فكل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وعملت عملا صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فإن من اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ولا هم يحزنون[١] وأما المقصود بالذين آمنوا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هم أهل الإسلام، الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ قيل أنهم فرقة من النصارى، وقيل إنهم قوم أو فرقة مستقلة، وقيل هم عبدة النجوم، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقيل هم من جنس النصارى، وليس ذلك بصحيح، بل هم فرقة معروفة، لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء[٢] فهم فرقة تعبد النجوم ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ هم أهل الإنجيل، وهم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام ﴿ وَٱلۡمَجُوسَ ﴾ هم قوم يعبدون النار، وقيل يعبدون الشمس والقمر ﴿ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ ﴾ وهم الذين يعبدون مع الله تعالى آلهة أخرى، وأشهرها الأصنام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٣/٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٤٣/٣)

قال قتادة رحمه الله تعالى: الصابئون قوم يعبدون الملائكة، ويصلون للقبلة، ويقرؤون الزبور. والمجوس يعبدون الشمس والقمر والنيران. والذين أشركوا: يعبدون الأوثان. والأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن[١]

فاشتملت الآية الكريمة على النوعين: الأول: أتباع الرُّسُل وهم المؤمنون، واليهود، والنصارى، والنوع الثاني: هم أهل الكفر: من الصابئين والمجوس والمشركين، وهذا على أساس أن الصابئة ليست فرقة من النصرانية. وهؤلاء منهم من كان قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم، فبعد بعثته عليه الصلاة والسلام فإنه لا دين إلا دين الله تعالى الذي أنزله على خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. فهؤلاء جميعاً يحكم الله تعالى بينهم فيما تنازعوا واختلفوا فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فإن الله تعالى يحكم بينهم بالعدل، فَيُدخل أهل الحق الجنة، ويدخل أهل الباطل النار، ففي ذلك إثبات الفصل بين أهل الملل والأديان يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فإن الله تعالى شهيد على أفعال وأقوال واعتقاد كل أحد من عباده، وعليم بسرائرهم، وحفيظ لكل ما يصدر عن عباده. وفي هذا تطمين للمؤمنين، وإنذار وإرشاد للكافرين بما يجب عليهم من الدخول في دين الله تعالى، الذي بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين، نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يُخبِرُ اللهُ تبارك وتعالى أنه هو المستحق للعبادة، فلعظمته وسلطانه يسجد كل شيء له عَزَّ وجل ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ بدأ التوجيه الكريم بسؤال يقرر به طاعة مخلوقاته بالسجود والانقياد له سبحانه وتعالى. وجملة ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تفيد الاستفهام على سبيل تقرير العلم بما هو معروف ومتقرر عند الْمُخَاطَب، فَيُلْجِئُهُ إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يشاهده بعينه وبصيرته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الرؤية هنا هي القلبية، لا البصرية، أي: ألم تعلم. والخطاب لكل من يصلح له، وهو من تتأتى منه الرؤية. والمراد بالسجود هنا هو الانقياد الكامل، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء[٢] وبالتالي فإن طاعة المخلوقات لربها محسوسة ومشاهدة من حال الشمس والقمر والنجوم والكواكب، إذ تتحرك بأدق المواقيت، فتسير في مسارها ومدارها سيراً بديعاً، لا تتقدم ولا تتأخر، وكذلك السحاب يأتي في أوقات محددة من ربه تبارك وتعالى، ويُمطر بما يسقي الأرض، فلا يجحف في النزول والعطاء، ولا ينهمر بما يهلك الأرض. بل في توازن عجيب ودقيق، فلا

(١) انظر، الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٨٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٤٤٣)

يمكن أن يكون هذا الشأن إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى. وامتثال هذه المخلوقات لربها عَزَّ وجل. مما يدل على كمال الطاعة. ويتوافق هذا مع دلالة عموم السجود، بأنه الانقياد الكامل كما قال الإمام الشوكاني آنفاً. وأما إذا قلنا بأنه هيئة مخصوصة لكل مخلوق بما يناسبه، فإنها تختلف في مخلوقات الله تعالى عن الإنسان. فسجود العاقل بما هو معروف من وضع الجبين والوجه على الأرض، وأما غير الإنسان من المخلوقات فيكون بما جبلها الله تعالى عليه، سواء كان هو الظل أو غيره. فالكائنات تسجد لله تعالى كما ذكر عَزَّ وجل، ونفوض الكيفية لله سبحانه تعالى.

وجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تفيد شد الذهن والانتباه والحس إلى المرئي الذي سيذكره الله سبحانه تعالى، لبيان عظمته التي لا يمكن أن يتغافل عنها الرائي، أو يتعذر من رؤيتها. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد أيها الْمُخَاطَب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية إلى أن يُفْنِي اللهُ تعالى الأرض ومن عليها بقيام الساعة، ففي إفراد الْمُخَاطَب ما يفيد التعميم، بأنه خطاب لكل أحد من الناس، فيخاطبه رَبُّهُ تبارك وتعالى بذاته، فإن الرؤية حاصلة لكل بصير بنفسه. وهذه دقة في الخطاب والتوجيه، وفي صيغة البيان، وقوة التأثير.

وقد ابتدأت الآية الكريمة بالتعميم ثم بالتفصيل، فذكر الله سبحانه وتعالى سجود جميع من في السماوات والأرض ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي من الملائكة في أقطار السماوات، والنبات والحيوان في جميع نواحي الأرض، وكذلك يشمل الإنس والجن والدواب والطير. ثم خص من الأشياء العلوية بالذكر ثلاثة منها ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ ﴾ ففي إفرادها عن غيرها من المخلوقات بالذكر والتنويه، هو لبيان شأنها، ولخصوصية علوها وارتفاعها، ومشاهدة الْمُخَاطَبِين لها. وتنويه من حيث أنها عُبِدت من دون الله تعالى، فكيف يا من تعبدونها، وتتوجهون لها وهي متوجهة لمن خلقها، فإنها مربوبة لربها تبارك وتعالى، فلماذا لا تتوجهون لمن توجهت هي إليه بالطاعة والامتثال، فإنه هو ربها وربكم سبحانه وتعالى، فكيف تعبدون من هو مفتقر ومتذلل لربه، وتتركون الغني عن غيره سبحانه وتعالى، فكيف تعبدون عاجزاً إلا بما يأمره به ربه وربكم سبحانه وتعالى، فإن الشمس والقمر والنجوم مربوبة ومسخرة لخالقها. وفي دقة حركة الشمس والقمر والنجوم ما يدل على أن المقصود بالسجود هو كمال الطاعة من غير تقديم ولا تأخير.

وبعد أن ذكر عَزَّ وجل المخلوقات العلوية تدرج البيان إلى ذِكر الأشياء السفلية ﴿ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإن جميع الجبال وجميع الشجر، وجميع الدواب تسجد طائعة لله تعالى،

بخضوعها له عَزَّ وجل، فثبات الجبال، وإنبات الشجر هو طاعة وامتثال لله تعالى، وأيضاً كثير من الناس طائع لله عَزَّ وجل، وساجداً له. ومن دقائق البيان أن الكون كله خاضع ومطيع لله تعالى ﴿ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ وأما الإنسان فقال تعالى عنه ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ فكثير من الناس من يسجد لله تعالى، مع عموم طاعتهم فيما يأمرهم به سبحانه وتعالى، وهم المؤمنون، وأيضاً كثير من الناس لا يسجدون لربهم، ممتنعين عن طاعته عَزَّ وجل، وهم الكافرون. فالناس صنفان، الصنف الأول: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يسجد لله تعالى امتثالاً لما أمرهم به سبحانه وتعالى، مع البعد والانتهاء عما نهى عنه جَلَّ جلاله، وهم المؤمنون. وأما الصنف الثاني ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ وكثير من الناس وجب العذاب عليهم لكفرهم وعنادهم، فإنه عصاة لربهم جَلَّ في علاه، فاستحقوا العذاب. وفي هذا بيان أن جنس الإنسان مخالف لبقية خلق الله تعالى الطائع الساجد، فمنهم المطيع ومنهم العاصي. وأفادت كلمة ﴿ وَكَثِيرٌ ﴾ بأن الطائعين لله تعالى كثير، وكذلك العاصين هم خلق كثير، فإن جنس الإنسان منقسم في طاعته لله تعالى إلى فئتين، فمنهم الممتثل وهم المؤمنون، ومنهم العاصي، وهم الكافرون.

ومن دقائق البيان أن السجود يشمل هيئة وضع الوجه على الأرض، ويشمل الانقياد والطاعة، وهو يعبر عن الانقياد والتذلل لله تعالى، وبالتالي تشمل دلالة السجود ﴿ يَسْجُدُ ﴾ سجود المؤمن في صلاته، وعموم انقياده لربه بالطاعة. وكذلك يشمل انقياد خلقه له من الأجرام السماوية والبحار والأنهار والأحجار والجبال والدواب، وكل ما خلق سبحانه وتعالى، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن سجود ما له ظل، أن: سجود ذلك ظلاله، حين تطلع عليه الشمس؛ وحين تزول، إذا تحول ظل كل شيء فهو سجوده[1] وفي سورة الرعد ورد قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾ فكذلك ظلال مخلوقاته تسجد له سبحانه وتعالى، بحسب حالها، في أول النهار وآخره. وفي هذا تنبيه للعباد على دقائق صنعه تبارك وتعالى، ودقائق بيانه عَزَّ وجل، مما يدل على أن هيئة السجود تختلف في مخلوقات الله تعالى عن الإنسان، فقد تكون بكمال الطاعة، وقد يُضاف إليها هيئة مخصوصة، تتناسب مع كل مخلوق.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٧/١٦)

وكذلك ورد السجود في سورة النحل، في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ولله يخضع ويخشع ويستسلم لأمره ما في السماوات وما في الأرض[١] فيفهم من ذلك أن السجود هو الطاعة والانقياد على وجه العموم، ويشمل بذلك السجود للعاقل بما هو معروف من وضع الجبين والوجه على الأرض، وأما غيرها من المخلوقات فيكون بما جبلها الله تعالى عليه، سواء كان الظل أو غيره. فالكائنات تسجد لله تعالى كما ذكر عزَّ وجل، ونفوض الكيفية لله تعالى. وبالتالي تشمل جملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ المشاهدة البصرية على أنها الطاعة والامتثال، ومن ذلك ظلال المخلوقات، وكمال الامتثال والطاعة، وتشمل المشاهدة البصرية والقلبية بطواعية جميع المخلوقات لربها تبارك وتعالى. فلا تنازع بين الدلالتين ولله الحمد.

ثم يخبر الله تعالى عن ثبات قضائه ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ فإن من يذله ويخزيه ويُهِنْهُ اللهُ تعالى لبطره وكفره وفسقه، فليس هناك من أحد يستطيع إنقاذه مما هو فيه من الهوان، فيكرمه. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ فإن لله تعالى كمال المشيئة، فلا أحد يستطيع الاعتراض على أحكامه، بأن لأهل الإيمان الجنة، ولأهل الكفر النار. فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. وهذا من كمال السلطان، وكمال الإرادة لله عَزَّ وجل، فلا معقب لحكمه سبحانه وتعالى.

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

(١) انظر، الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٢٤٥)

ثم في تسلسل بديع عن حالة أهل الإيمان وأهل الكفر، مع ما أوضحته وبينته آيات هذه السورة سابقاً عن حُكمه جَلَّ جلاله بين أهل الإيمان واليهود والنصارى والصابئة والمجوس والمشركين؛ وطاعة مخلوقاته له بالسجود والانقياد يذكر ربنا تبارك وتعالى حالة فريقين مختلفين في ربهم، وكل منهما يَدَّعِي أنه الْمُحِق ﴿ **هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ** ﴾ هذان فريقان مختصمان، قد اختصموا في ذات ربهم؛ وفي دينه وأمره، بما يفيد أن كل فريق يَدَّعي أنه الْمُحِقُ فيما يدَّعِيه، وأنه على الصواب المبين. ثم يبين ربنا بعد ذلك جزاء كل فريق. ومن دقائق الآية الكريمة أنها سَمَّت كل طرف بأنه خصم للآخر، والخصم عادة يريد أن يظفر بخصمه وينتصر عليه ﴿ **هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ** ﴾ وكل يرى أنه المحق فيما يعتقد، وأن خصمه الآخر على الباطل، وكل منهما يريد أن يُقنع الآخر بما هو عليه، ويجذبه إلى اعتقاده في ربه، أو يعاديه عداوة دينية. وأن الحالة بينهما هي الخصومة والجدال فيما اختلفوا فيه. وقد جاءت التثنية بأنهما خصمان ﴿ **هَٰذَانِ خَصۡمَانِ** ﴾ بينما ورد الجمع في الخصومة ﴿ **ٱخۡتَصَمُواْ** ﴾ فالتثنية تدل على أن المؤمنين في مجموعهم يشكلون خصماً، وجميع أنواع الكفرين في مجموعهم يشكلون خصماً مقابلاً للمؤمنين. ودلت كلمة ﴿ **ٱخۡتَصَمُواْ** ﴾ على كثرة كل فريق. فالمؤمنون كُثُر، وأنواع الكافرين كُثر.

وموضوع الاختلاف هو في ربهم الذي خلقهم ﴿ **هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ** ﴾ مما يفيد أنهم فئتان متضادتان، فئة على حق وهم المؤمنون، وفئة على الباطل، وهم أهل الكفر جميعاً، بما يدل ويفيد على أنه سجال بين المؤمنين والكافرين. قال الحسن: هم الكافرون والمؤمنون، اختصموا في ربهم. وقال الطبري رحمه الله تعالى: عُني بالخصمين جميع الكفار، من أي أصناف الكفر كانوا، وجميع المؤمنين[١] فبذلك يشمل السياق ما كان متعلقاً بسبب النزول، بأنها نزلت في النفر الذين تبارزوا للقتال يوم بدر، وكذلك يشمل كل ما يقع من خصومة بين المؤمنين والكافرين في شأن ربهم، فتشمل كل ما يتعلق بدين الله عَزَّ وجل، وما يتعلق بذاته وصفاته سبحانه وتعالى، وتشريعه، وما يتعلق بتوحيده، وإفراده بالعبادة، وألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقول مجاهد وعطاء رحمهم الله تعالى: أن المراد بهذه: الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها. وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها[٢] فبذلك تكون دلالة الآية شاملة لأسباب النزول، وشاملة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٣/١٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٢/٣)

لكل ما يقع من المخاصمة في الله تعالى بين المؤمنين وغيرهم من الكافرين. مما يفيد سعة دلالة القرآن التي حوتها براعة نظمه، بما يفيد الإعجاز في تراكيب ألفاظه، وبناء سياقه بما يستوفي به المراد من غير تكرار.

وقد جاء البيان مطلقاً ﴿ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ﴾ فجملة ﴿ فِى رَبِّهِمْ ﴾ وردت عامة لتستوعب كل ما يتعلق بالمعبود. فتنوع الكافرين في نوع كفرهم يدل على تنوع خصومتهم مع المؤمنين في ربهم. فكفر أهل الكتاب يختلف عن نوع كفر عبدة الكواكب، ويمتد الاختلاف مع المشركين كذلك، فكل كفر له من نوع كفره خصومة مع المؤمنين، فاستوعبت الآية الكريمة جميع ذلك التنوع، سواء كان في الألوهية أو الربوبية، أو في العبودية، أو في الأسماء والصفات، أو في غيرها مما يخص ربهم. فكل من عبد غير الله تعالى فقد خاصم في ربه وخالقه تبارك وتعالى، وكل من أشرك معه غيره فقد خاصم ونابذ الحق في ربه، وكل من ادَّعَى أن لله الولد أو البنات فقد وقع في الخصام مع المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الجزاء لكل من الفريقين، مبتدئاً بالكافرين ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ فإن جزاء الكافرين هو: ثياب من نحاس مذاب من شدة حرارته، وتسميته بالثياب لأنه يحيط بهم كإحاطة الثوب بلابسه، بما يفيد ملاصقة العذاب لأجسادهم. وتفيد كلمة ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ أي فُصِّلَت لهم مقطعات، أي: رُتِّبَت وسُوِّيت هذه الثياب لهم، مُفَصَّلة عليهم. وورد الوصف لها بصيغة الماضي ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ باعتبار أنه مقطوع بحصوله، وكأنه قد حدث ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ وهذه الثياب ليست من القماش بل ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ فتكون النار قد أحاطت بهم إحاطة الثوب بالجسد، ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ فَيُصَبُّ من فوقهم الماء الحار على رؤوسهم، وهو الماء المغلي بالنار. قال القرطبي رحمه الله تعالى، أي: الماء الحار المغلي بنار الحميم حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر. ثم يعاد كما كان[1] ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ أي: يُذاب بذلك الحميم ما في أجوافهم من الأمعاء والأحشاء، وكذلك ﴿ وَٱلْجُلُودُ ﴾ فَيُصهر به كذلك جلودهم، وهي الخارج من الأجساد، أي الظاهر منها، وكذلك فإنهم يُضربون بقطع من الحديد ﴿ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ أي بقطع من حديد يُضرب بها الكفرة. وهذا بيان لحال الكفرة، وإنذار لهم مما هم قادمون إليه إن لم ينتهوا عن كفرهم، ويدخلوا في الإسلام.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٢)

ثم يخبر الله جَلَّ جلاله بما يواجه أهل النار، عندما يحاولون ويريدون الخروج عنها ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ كلما أراد هؤلاء الكفرة الخروج من النار نتيجة شدة كربهم وغمهم من سعيرها؛ وقوة عذابها، أعيدوا فيه مرة أخرى. وقيل لهم على لسان خزنة جهنم ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ أي: تذوقوا العذاب المحرق. فَيُهانُون بالعذاب قولاً وفعلاً. فيكون هذا هو حال الكافر. ووبِّخُوا بكلمة ﴿ وَذُوقُواْ ﴾ التي تفيد مباشرة العذاب وشدته إلى درجة مماسته لحواسهم جميعها؛ كما يتذوق اللسان الطعام ونوعه. فالتذوق باللسان هو أشد وأدق حالات التذوق والاستشعار لدقائق المطعوم. فيكون قد بلغ بهم شدة الإحساس بالعذاب ما تبلغه حاسة اللسان من الطعام.

ومن دقائق البيان أن لفظة ﴿ كُلَّمَآ ﴾ تفيد البيان بتكرار إرادة محاولة الخروج منهم، مرة بعد مرة، وكذلك تكرار إعادتهم في النار ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ وكذلك تكرار قول الملائكة لهم ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ فيتكرر العذاب وتتكرر الإهانة لهم. وأما كلمة ﴿ غَمٍّ ﴾ التي توضح غور ما هم فيه من العذاب، فهي تفيد: التغطية وشدة الضيق، فإن من شدة العذاب أنه يفقد أمل الإفراج، مع شدة انقباض القلب، وهو الأمر الذي يفقد فيه الإنسان القدرة على إزالة ما أصابه من الكرب، وهو ما يضيق به القلب. وقد أفادت دلالة ﴿ مِنۡ غَمٍّ ﴾ تعدد الغم وتنوعه وكثرته ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ كلما أرادوا الخروج من غم ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ليذوقوا المزيد من تكاثر وتنوع الغم الذي هم فيه.

ومن أنواع العذاب الذي يناله الكفار هو العذاب النفسي، فعندما تنبعث في نفوسهم أمل الانفكاك من النار يُعَادُون إليها مرة بعد مرة ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ فإنه بمجرد المحاولة يُعادون فيها ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ فيجدون من يصدهم من خزنة النار عن مرادهم، قائلين لهم ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ لأن الإرادة ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ ﴾ تعني الرغبة والابتغاء، ومحاولة مباشرة الخروج، وتَظهر الإرادة عند توقع حصول المأمول والمطلوب، وهي تشير إلى الإحساس بالقدرة والأمل، فَيُقطع أملهم عند ارتفاع توقعهم، وذلك بإعادتهم فيها ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ فتزداد الحسرة، ويزداد العذاب النفسي. بما يفيد التحذير والحذر من هذا المصير. فإن في الإسلام النجاة والسلامة والسعادة. اللهم ثبتنا على الإسلام. وتوفنا مسلمين. وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الاخرة بمنك وفضلك يا رب العالمين.

وبعد أن أوضح وبين سبحانه وتعالى حال فريق الكفر المخاصم لأهل الإيمان، وما يجدونه من العذاب، يخبر جَلَّ جلاله عن حال الفريق الثاني: وهم المؤمنون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ يُعَظِّمُ اللهُ تبارك وتعالى شأن المؤمنين، بإفرادهم عمن قبلهم من الكافرين بسياق خاص بهم، فلم يعطف الخبر عنهم على حال من سبقهم من الكافرين، بل أفردهم مع تأكيد دخولهم الجنة بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ونسب وأحال الحكم بإدخالهم الجنة إليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل بفضله وكرمه يُدخل جناته عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح. مما يفيد التلازم بين الإيمان، وبين عمل الصالحات، الذي يعني العمل بطاعته سبحانه وتعالى وفق ما شرعه لعباده من الدين، فهما أمران متلازمان لإدخالهم الجنة.

ثم وصف سبحانه وتعالى تلك الجنة التي يدخلونها بأوصاف عديدة: أولها أنها ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فهي بساتين تجري من تحتها الأنهار. وهي التي من صفاتها: أنها تجري الأنهار من خلالها، ومن أسافلها، فتمر الأنهار في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها. وأن حياتها حياة خلود دائم لا ينقطع ولا ينتهي ولا يزول. وأما ثاني أوصافها: أن أهلها يُحلون بأجمل الحلي من الزينة ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ يتزينون على أيديهم في تلك الجنات بأساور من الذهب، واللؤلؤ، فيتم ترصيع أساور الذهب باللؤلؤ. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: واللؤلؤ: الدر. ويقال له: الجمان والجوهر، وهو حبوب بيضاء وصفراء، ذات بريق رقراق(١) ومن دقائق سياق الجملة أن التحلية وردة بصيغة ما لم يُذكر فاعله ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ لتفيد أن هناك من يقوم بصنعها والإتيان لهم بها؛ فيحلونهم في مواطن التحلية والتزين من الإنسان.

وأما ثالث أوصافها فإنه مُتعلق بنوع الثياب ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي: وجميع ما يلبسونه فيها من الملابس هي من فئة الحرير. ويجوز أنه من جملة ما يلبسونه، فالتنويه به على اعتبار أنه المرغوب والمحبوب عند العباد في الدنيا، فقد ذكر الله تبارك وتعالى: السندس والاستبرق في سورة الدخان ﴿ يَلْبَسُونَ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٧٧/٧)

مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ وفي سورة الإنسان ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ فإن لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس. اللهم اجعلنا من أهلها الفائزين بها من غير حساب ولا سابق عذاب، برحمتك ومَنِّكَ وكرمك، يا ربنا وخالقنا.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما هم فيه وعليه من جميل القول والكلام ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ فقد أُرشِدُوا ووفِّقُوا إلى الكلام الطيب الذي يَرْضَى اللهُ تعالى به، فهو توجيه عام؛ يشمل جميع أنواع الكلام الطيب، وأعلاها قول: لا إله إلا الله. وحمده وشكره والثناء عليه عَزَّ وجل، وسائر الأقوال الطيبة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: لا إله إلا الله، والحمد لله، وقيل: القرآن[١] مما يفيد أنهم لا يقولون كلاماً إلا وهو كلام طيب يُرضي الله سبحانه وتعالى. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن معنى ﴿ وَهُدُوٓاْ ﴾ أي: أرشدوا في الدنيا[٢]

وكذلك من نعم الله تعالى عليهم هدايتهم إلى الطريق المحمود ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ وهو دين الله تعالى القويم الذي هو الإسلام، وكذلك الطريق الموصل إلى الجنة. قال الطبري رحمه الله تعالى: وهداهم ربهم في الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله. وقال كذلك رحمه الله تعالى: وهداهم ربهم في الدنيا إلى طريق الرب الحميد، وطريق دينه الإسلام الذي شرعه لخلقه، وأمرهم أن يسلكوه[٣] مما يفيد أن هداية العبد وتوفيقه هي بيد الله تعالى، فعليه أن يسأله الهداية والتوفيق والثبات، وأن يجتهد في الكلام الطيب، ويسلك مسلك طريق الجنة، الذي هو دين الله تعالى، الذي أرسل به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إظهار وإعلان شناعة ما كان عليه المشركون فيما يخص المسجد الحرام، مع بيان مكانته ومنزلته وشرفه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يبين سبحانه وتعالى ما ينبغي حيال المسجد الحرام، وما يجب في حق بيته العتيق، وما يضاده من أعمال المشركين التي كانوا عليها، إذ وصفهم أولاً بالكفر، الذي هو أقبح الأوصاف وأشنعها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١/١٢-٢٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٧/٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٠/١٦)

فأثبت كفرهم مع توكيده بنون التأكيد السابقة لوصفهم بالكفر ﴿ إِنَّ ﴾ ذلك بأنهم جحدوا توحيد الله تبارك وتعالى، وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنكروا القرآن الذي جاءهم من عند ربهم عَزَّ وجل. ثم كشف عما كان منهم تجاه الراغبين في دين الله تعالى، والقاصدين بيته الحرام ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله تعالى، بتحذير الناس منه، والطعن فيه؛ وفي نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كان منهم تجاه بيته العتيق ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فيصدون الناس عن سبيل الله تعالى الذي هو دينه، وكذلك يصدون الناس عن المسجد الحرام، وبالرغم من أن صدهم عن سبيل الله تعالى يتضمن صدهم للناس عن المسجد الحرام إلا أن في ذكره وتخصيصه ما يبين شناعة ذلك الأمر منهم، وبيان مقام ومكانة وقدسية بيته العتيق المحرم. وسواء كان هذا الصد متعلق بمنع المسلمين بعد هجرتهم، أو بجميع الأحوال التي كانت منهم. بل ورد الصد بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ ليدل على تكرار ذلك من المشركين، واستمرارهم حتى فتح الله تعالى مكة على رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم وصف سبحانه وتعالى بيته الحرام بميزاته وعظيم شرفه ومكانته ومنزلته، فأولاً: ما يتعلق بالمقصد والمراد التعبدي للناس ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ أي: جعلناه للناس عموماً، للصلاة أو الطواف، ثم خص العاكف بالذكر، لأنه يقيم به ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ ﴾ أي من أراد الاعتكاف بالإقامة في المسجد الحرم لوقت محدد من جهة المعتكف، وأيضاً تشمل دلالة ﴿ ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ ﴾ المقيم بمكة حرسها الله تبارك وتعالى. وأما ﴿ وَٱلْبَادِ ﴾ أي: القادم إليه من غير أهل مكة. ومن فوائد ذلك ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فصار المعنى: الذي جعلناه للعاكف والبادي سواء. فأما العاكف فهو المقيم، والبادي: الذي يأتيه من غير أهله. وذكر كذلك: أن العاكف والبادي يستويان في سكنى مكة، والنزول بها. فليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر، غير أنه لا يُخْرَج أحد من بيته، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، إلى نحو هذا ذهب أبو حنيفة وأحمد(١) وقال السعدي رحمه الله تعالى: يخبر الله تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضاً عن المسجد الحرام الذي ليس ملكا لهم ولا لآبائهم، بل الناس

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٨/٥)

فيه سواء، المقيم فيه، والطارئ إليه[١] فجمعوا بين الكفر وبين الصد عن دين الله تعالى، وعن بيته العتيق، ليحملوا أوزارهم وأزار من صدوهم عن سبيل الله عَزَّ وجل.

ثم يبين سبحانه وتعالى حكم وجزاء من أراد الانحراف والسوء والظلم في المسجد الحرام ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن يهم بإرادة الألحاد، وهو الميل والحيدة عن أحكام الشريعة الربانية، وخروجه عن الحق إلى الباطل، وزيغه عن طاعة الله تعالى بسبب ظلمه، نذيقه عذاباً شديداً، لا يستطيع تحمله، ولا يعرق قدره وشدته أحد من الخلق. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الإلحاد في اللغة: الميل. إلا أن الله تعالى بين أن الميل بالظلم هو المراد[٢] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: إذا هم بذلك في الحرم خاصة، عوقب. هذا مذهب ابن مسعود. وذكر كذلك قول الضحاك: إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو بأرض أخرى، فتكتب عليه ولم يعملها، وقال مجاهد: تضاعف السيئات بمكة؛ كما تضاعف الحسنات، وسئل الإمام أحمد: هل تكتب السيئة أكثر من واحدة؟ فقال: لا. إلا بمكة، لتعظيم البلد[٣] والمعاصي تُضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، فتكون المعصية معصيتين، إحداهما بنفس المخالفة، والثانية بإسقاط حرمة البلد الحرام[٤] وهذا تهديد ووعيد شديد لكل من يحاول فعل ما نهى الله تعالى عنه. فكيف لو فعله، أو نوى أن يفعله، مما يدل على عظمة بيته الحرام، وعموم مكة حرسها الله تعالى.

والوعيد متعلق بالإرادة، والهم، مما يدل على عظمة هذا البيت، وشدة حرمته، ووجوب توقي المعصية فيه. وقد ورد الظلم عاماً، ليستوعب جميع أنواعه، ومقداره، قليلاً كان أو كثيراً، وصغيراً أو كبيراً. ومن أمثلة ذلك أنه روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا تحتكروا الطعام بمكة، فإن احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم[٥] مما يدل على أن الإنسان يعاقب على ما ينوي من المعاصي بمكة، فمجرد الإرادة دون الفعل يعاقب على ذلك، بينما في غيرها من الأماكن لا يعاقب إلا على الفعل، مما يدل على عظمة هذا البيت، وعظمة مكة كلها، فهي كلها حرم.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣١٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٨٩)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٤)

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٤) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٨٩)

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما يتعلق بكفر المشركين في مكة، وصدهم عن سبيله عَزَّ وجل، وعن المسجد الحرام، يذكر عَزَّ وجل علاقة نبيه ورسوله إبراهيم عليه السلام بالبيت العتيق، وما شرعه عَزَّ وجل من نسك الحج، وما يتحقق للحجاج من المقاصد والمنافع ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ واذكر حين عَرَّفنا إبراهيم بمكان البيت العتيق، ومَكَّنَّاه من ذلك؛ بما يتحقق به بناء هذا البيت. فجعلناه متمكنا بالأمر الذي يجعله قادراً على ما كُلِّف به من البناء. أي: أن الله تبارك وتعالى أرشد رسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى مكان البيت، ومكَّنه ومكَّن له، وكلفه ببنائه. والْمُخَاطَب بهذا الخبر يعود للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك يحمل شمولية الْمُخَاطَبِين، إذ ورد البيان دون تنصيص على الْمُخَاطَب.

فيخبر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وجميع عباده بمنزلة المسجد الحرام، وما كُلِّف به رسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فيقول الله جَلَّ شأنه ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ واذكر حين مكنا وهيأنا إبراهيم بما يتمكن به من شأن بناء بيت الله العتيق، فجعلناه متمكنا بالأمر الذي يجعله قادراً على ما كُلِّف به. وكلمة ﴿بَوَّأْنَا﴾ تفيد أن الله سبحانه وتعالى جعل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام من القوة والقدرة على التصرف في تشييد البناء، ما يتمكن به من تنفيذه كما أمر سبحانه وتعالى، فجعل تصرفه فيه كتصرف القادر الذي لا يمنعه شيء. وقد نسب عَزَّ وجل تبوء إبراهيم له جَلَّ جلاله ﴿بَوَّأْنَا﴾ فمنحه سبحانه وتعالى التمكين الذي يعطي دلالة كمال القدرة، من حيث الأداء والتصرف، بل وأكد ذلك بلام التأكيد ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ مما يبين أن الله تعالى إذا مكَّن أحداً من أمرٍ، يَسَّرَ له ما يستعين به على ما يمكنه فيه، فلا يستطيع أن يتغلب أحد عليه.

ويخبر سبحانه وتعالى بأنه أظهر له مكان البيت، وعلمه به ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فقد أوضحنا أصل البيت الحرام لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، ليقوم ببنائه، فأرشده سبحانه وتعالى إلى موقعه. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أريناه أصله ليبنيه، وكان قد درس بالطوفان وغيره، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام، أمره ببنائه[١] وجملة ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ تدل على أنه كان موجوداً، فله حيز وهو المكان، ولكنه انطمس عليه بما جعله غير ظاهر على سطح الأرض. فبوأه أي عرفه، مما يدل على اختفائه بما أحدثه الطوفان به، فانعدم ظهوره على الأرض. وجاء في صحيح البخاري عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال (أربعون سنة)[٢] وبكة: اسم من أسماء مكة على المشهور، لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى أنهم يذلون بها، ويخضعون عندها[٣] مما يفيد أن الله تعالى قد جعل لمكة خصوصية ظاهرة على غيرها من بلاد الله تعالى. مما يجعل ذلك آية ظاهرة على ربوبية الله تعالى، وأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه يعطي ما يشاء لمن يشاء من الخصوصية عن غيره من نفس جنسه، فلا ينازعه أحدٌ في ملكه وقضائه وحكمته واختياره سبحانه وتعالى، أو أنه سبحانه وتعالى يُفَضِّلَ مكاناً على مكان، فَيُثْبِت له فضلاً مخصوصاً من الخالق المالك عَزَّ وجل، لأي سبب من الأسباب، مما يتفاوت الناس في تقييمه وتقديمه على غيره. كما يجب تعظيم ما عظمه الله تعالى امتثالاً لحكمه وتقديره، والحذر من معصيته ومخالفة أمره وتوجيهه، أو منازعته فيما اختار وفضل من خلقه، سواء كان من البشر، أو من الملائكة، أو من الأمكنة، أو من أي شيء كان من خلقه.

ثم ينهى تبارك وتعالى عن الشرك، إذ يأمر سبحانه وتعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يمنع ويمتنع عن الشرك، وينهاه عن ذلك، وينهى عنه ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي: عهدنا إلى إبراهيم بأن لا تشرك بي شيئاً. قال القرطبي رحمه الله تعالى: هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام في قول الجمهور[٤] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ابْنِهِ على اسمي وحدي[٥] مما يفيد تعظيم توحيد الله تعالى، إذ جعل الله تعالى هذا النهي في حق خليله ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، تعظيماً لما نهى عنه عَزَّ وجل، إذ إبراهيم عليه الصلاة أبعد

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٥/١٢)

(٢) البخاري (٤٦٦/٢) برقم (٣٣٦٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩١/١)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٥/١٢)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٦/٣)

عن الشرك، ولكن لإفادة تعظيم ما نهى عنه جَلَّ في علاه. فإذا كان ذلك في حق خليله ورسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإن دلالته تفيد أنه أمر وشأن عظيم. فإن إبراهيم موحد لربه تبارك وتعالى، فأفاد النهي تعظيم شأن توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وبكل ما هو له، مما لا ينبغي لغيره. بل ورد النهي بصيغة القطع ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾ فكلمة ﴿شَيْـًٔا﴾ تدل على حتى اليسير، بما يُظهر كمال الإخلاص، ولو كان شيئاً بسيطاً يسيراً، فيجب أن يكون بكمال الإخلاص لله تعالى. بل وسبق ذلك حرف التأكيد ﴿أَن﴾ لتؤكد ما بعدها من النهي.

ثم أمر سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بأن يجعل بيته الحرام خالصاً للطائفين والقائمين والمصلين، ويطهره من المشركين ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: واجعل البيت خاصاً لهؤلاء العابدين، وطهره من غيرهم، ويشمل التطهير، تخليصه من الشرك، والأصنام، وسائر النجاسات، وما لا يليق به وبمقامه، مؤكداً على ذلك بإضافة البيت له سبحانه وتعالى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ مما يفيد التشريف والتعظيم لهذا البيت، وبياناً لرفعته ومنزلته ومكانته عند الله تبارك وتعالى. وفي هذا من الفوائد: ثواب من قام على البيت الحرام بما هو له من العناية والحماية والتطهير. ويقاس عليه المساجد عموماً بتطهيرها، ونظافتها والعناية بها، لأن ذلك ائتمار بما أمر اللهُ تعالى به إبراهيمَ عليه السلام. وكذلك لما ورد من أحاديث تأمر بتطهيرها وتطيبها، وكذلك اقتداء بعناية النبي صلى الله عليه وسلم بذلك. ويلاحظ في قوله تعالى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ أن الله تبارك وتعالى أضاف البيت إليه ﴿بَيْتِيَ﴾ فهذا تشريف، ومنزلة وشرف عظيم لمكانة بيت الله الحرام. مما يفيد أن مِن تعظيم الله تعالى أن يُعَظِّم المؤمنُ ما عَظَّمَهُ اللهُ سبحانه وتعالى، فَيُعَظِّم هذا البيت ويُجِلُّهُ إجلالاً يليق بهذه المكانة الرفيعة.

وخص سبحانه وتعالى تطهير البيت لثلاث أصناف من الْعُبَّاد ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ مما يفيد منزلة ومكانة هذه الأصناف، فالصنف الأول هو: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ وهم الذين يطوفون بالكعبة، والطواف لا يكون إلا في البيت، حول الكعبة، مما يفيد منزلة ومكانة الطواف بالكعبة المشرفة، كما يدل على أن الطواف بالبيت أمراً قديماً، وعبادة لله تعالى قبل البعثة النبوية. والصنف الثاني هو: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وفي المراد بالقائمين قولان: أحدهما القائمون في الصلاة، قاله: عطاء، والجمهور. والثاني: المقيمون بمكة، حُكي عن قتادة(١) قال السعدي رحمه الله تعالى: للطائفين به،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٩٠)

والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذِكْرٍ، وقراءة وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب[١]

وفي كلمة ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ ما يدل على شمول دلالة القائمين في المسجد الحرام، سواء المصلين أو المعتكفين، أو القائمين بالعناية به، وخدمته، والمتعلمين والمعلمين فيه، لأنه سبحانه وتعالى خص المصلين بعد القائمين بأعظم أركان الصلاة ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ مما يدل على أن القائمين ليس حصراً على المصلين، بل هو أوسع من ذلك. حيث ذكر سبحانه وتعالى أعظم أعمال الصلاة، وهيئتها وهي ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

ومن غزارة البيان أن ذكر سبحانه وتعالى ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ باعتبار الفاعلين لهذين الركنين من الصلاة ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فالركَّع هم الفاعلين للركوع، وهي من صيغ الكثرة، فتفيد كثرة صلاتهم، ومثله السُّجُود. وسماهم باسم أفعال الصلاة ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ بما يدل على المدح والثناء بما هم عليه من الصلاة، وفي تسميتهم بذلك الاسم لإفادة عظيم هذين الركنين من الصلاة عند الله تعالى، كما أفادت صيغت التكثير إظهار وبيان المداومة عليها، بكثرة صلاتهم، حتى عُرِفُوا وعُرِّفُوا بالرُّكَّوعِ وبالسجود، فصارة سمة ودلالة لهم بها. ففيه عظيم المدح لهم بكثرة صلاتهم. ليدل على عظم هذه شعيرة الصلاة، وعظيم الركوع والسجود من بين أعمال الصلاة. لأن للتخصيص مزية. كما أن في هذه الآية الكريمة تشنيع على مشركي قريش، لمخالفتهم الأصل في أساس هذا البيت، الذي أسس على التقوى والتوحيد، فأشركوا فيه، ونَصَّبوا الأصنام في البيت، بل جعلوها داخل الكعبة المشرفة.

ثم يخبر الله تعالى بما أمر به رسوله ونبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام في شأن الحج ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يأمر الله تبارك وتعالى رسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن ينادي في الناس بالحج ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي: ناد في الناس بالحج، داعياً لهم إلى حج هذا البيت الذي أمرناك ببنائه. فَذُكِر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا يصل إليهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل: على الصفا. وقيل على أبي قبيس. ثم قال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه. فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض. وأسمع من في الأرحام والأصلاب. وأجابه كل شيء سمعه، من حجر ومدر وشجر، ومن كَتب اللهُ أنه يحج إلى يوم القيامة، لبيك اللهم لبيك. هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣١٧)

بن جبير، وغير واحد من السلف، والله أعلم[١] وفي هذا إعجاز، وآية عظيمة من الله تعالى ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مشاة على أرجلهم ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: وركباناً على البعير، والضامر هو البعير. وسمي ضامر لأنه قد هزل من طول السفر، ليدل على التوافد إلى الحج من الأمكنة البعيدة التي ضعف فيها المركوب. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: أريد بقوله تعالى ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وهي الإبل المهازيل[٢] فالناس سيأتون للحج ما بين ماشياً على قدميه، وما بين راكباً على ما يحمله إلى البيت.

وقال تعالى عن نواحي مجيئهم ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: يأتون من كل طريق موغل في البعد. والفج: الطريق الواسع، والجمع فِجاج. والعميق: البعيد[٣] مما يدل على تنوع الأمكنة التي يأتون منها، وأن بعضهم يأتي من أمكنة بعيدة جداً. مما يدل على المبادرة في الاستجابة لله تعالى بنداء رسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالحج. وتحملهم المشقة والمعاناة، حباً لبيت الله العتيق، وحباً في طاعة ربهم تبارك وتعالى. وهذا مغروس في نفوس المسلمين أجمعين، فكل مسلم متشوق لهذا النسك، ويدفع الغالي والنفيس من أجل أن يظفر بالحج إلى بيت الله المحرم. فإنها آية عظيمة، وحُجَّةٌ ظاهرة بينة.

ثم يذكر سبحانه وتعالى علة تحمل هؤلاء العباد لهذه المشقة نحو الحج ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ فالهدف الأول هو ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: ليحضروا ما ينفعهم من شأن الدنيا والآخرة. لعموم دلالة النفع، فلم تُخصص بالدنيا، ولا بالآخرة، فورودها عاماً، ليفيد الجمع للمنافع كلها من خير الدنيا والآخرة. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال من قال: عني بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله، والتجارة. وذلك أن الله عَمَّ ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ جميع ما يشهد له الموسم[٤] وعن مجاهد رحمه الله تعالى: أنها منافع الدارين، قال ابن الجوزي معلقاً عليه: وهو أصح. لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة، وإنما الأصل قصد الحج؛ والتجارة تبع[٥] ليدل على عموم المنافع من الأجر في الآخرة، والتجارة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٢٦)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥١٤)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣/٤٤٨)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٢٠-٥٢٢)
(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٩٢)

في الدنيا، وما فيها من التكسب. فإن دلالة المنافع تجمع خير الدنيا والآخرة. فقد ورد لفظ المنافع عاماً، وكذلك بصيغة الجمع، ليدل على تنوعها، فمن تلك المنافع: الاستجابة لأمر الله تعالى الذي نادى به رسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وابتغاء المغفرة والفوز بالجنة، وإرضاء الله تعالى، وتحصيل التعارف بين المسلمين، وكسب الأجر والمثوبة، وتكفير الذنوب، وجميع ما يحصل في الحج من الخير كالتجارة، وما يحصل في الطريق إلى الحج من البيع والشراء، وغيرها من المنافع الكثيرة والمتنوعة، التي يستوعبها قوله تعال ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن ورود المنافع بصيغة النكرة ﴿مَنَٰفِعَ ﴾: لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة، دينية ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادات[١]

والهدف الثاني ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والمراد بذكر اسم الله، ذكر التسمية عند الذبح والنحر[٢] مما يدل على أهمية التسمية، وأنها من ذكر الله تعالى، وقد كنى سبحانه وتعالى عن الذبح بذكر اسمه، أي: اذكروا اسم الله عند ذبحها، وهذا من دقائق البيان، والاستغناء عن زوائد الكلام. وحدد الله تبارك وتعالى تلك الأيام المخصوصة بالحج ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ ﴾ وهي أيام الحج، المعلومة لدى الحاج، بما يفيد وجوب تعلم ومعرفة هذه الأيام التي يحصل فيها الذبح والنحر ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ فيشكروا الله تعالى على رزقه لهم من بهيمة الأنعام، فسخرها لهم، ورزقهم إياها. وجملة ﴿بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ هي الإبل والبقر والغنم. وفي ذلك تعويد المسلم على الإنفاق من ماله، وتربيته على أفعال الخير، مما يبين أن في منهج الإسلام وفي نسكه تدريب وتعليم وتفقيه لكل مناحي الخير. ومن دقائق البيان كما قاله الزمخشري يرحمه الله تعالى عن علاقة لفظة البهيمة بالأنعام: فالبهيمة: مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فَبُيِّنَت بالأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز[٣] وهذا من دقائق البيان في القرآن الكريم، وأن كل لفظة محققة لمقصود مُعَيَّن ومحدد، وكذلك مُقَيّدَةٌ للمفهوم. فهو إعجاز بيان، ودقة في نظم كلام الرحمن.

(١) الزمخشري، الكشاف (١٥١/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٩/١٢)

(٣) الزمخشري، الكشاف (١٥١/٣)

ثم يندب اللهُ عَزَّ وجل عبادَه بالأَكل مما ذبحوه، ويطعموا غيرهم منه، وهو الهدف الثالث: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ فكلوا منها، أي: مما ذبحتم، على سبيل الندب والإباحة. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وهذا الأمر من الله جَلَّ ثناؤه أمرُ إباحة(١) فإنه لا يمتنع عليكم الأَكل منها. ثم الهدف الرابع، وهو: التصدق على غيركم من الفقراء، وخص ﴿ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ وهو الشديد الفقر. فالبائس هو: الذي أضر به الجوع، والفقير: الذي لا شيء عنده. وفي تخصيصه ندباً وتنبيهاً له بالذكر والتخصيص، ليحصل الحرص عليه، لأنه أحوج من غيره للطعام منها. مما يدل على عناية منهج الإسلام بأفراده وتفقدهم؛ والعناية بهم، بما يربي في المسلم تفقد إخوانه المسلمين، وتخصيص الأولى فالأولى، فهو تعليم وتنبيه وتربية لهم على العطاء، مع تفقد وتخصص ذوي الحاجات. ومن دقائق البيان هو ورود البائس والفقير عاما، ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة.

ثم يخبر سبحانه عباده الحجيج بما يعملونه من النسك ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ فأرشدهم أولاً إلى قضاء ما عليهم من مناسك الحج، وهو الهدف الخامس: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ أي: ليؤدوا. لأن القضاء ﴿ لْيَقْضُواْ ﴾ بمعنى الأداء. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي ليؤدوا إزالة وسخهم، لأن التفث هو الوسخ، والقذارة، من طول الشعر والأظفار، وقد أجمع المفسرون كما حكاه النيسابوري على هذا(٢) وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: قضاء التفث: قص الشارب والأظفار، ونتف الإبط والاستحداد. والتفث: الوسخ(٣) وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه: هو حلق الرأس، وأخذ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظفار، والأخذ من العارضين، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، رواه عطاء عن ابن عباس، وقيل مناسك الحج، وقيل: حلق الرأس. وقيل: الشعر والظفر. وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والقول الأول أصح(٤) فمدلول الآية الكريمة ينص على إزالة التفث، وهو الوسخ، وهو الأصوب والأرجح، خاصة وأنه تم ذكر بعض مفردات الحج بعد الأمر بقضاء التفث، فورد الوفاء بالنذر، والطواف بالبيت ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٣/١٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٤٩/٣)

(٣) الزمخشري، الكشاف (١٥٢/٣)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩٢/٥)

ﱡﭐ ٱلۡعَتِيقِ ﱠ مما يدل على انفراد دلالة التفث بمدلولها الخاص ﱡﭐ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ ﱠ وهو إزالة الأوساخ. والله تعالى أعلم.

ثم وجههم تبارك وتعالى إلى الوفاء بما نذروا، وهو الهدف السادس: ﱡﭐ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ ﱠ وهو نحر ما نذروا من البدن، وما نذروا من أعمال البر، وبما نذروا من قبل. فهو يشمل جميع صور النذر من البر والخير والطاعة، وفاء لله تعالى بما نذروه من أعمال صالحة. وفي هذا تعويد للمؤمن على الوفاء مع الله تعالى، والوفاء مع غيره من العباد، وأن يتحامل المسلم على نفسه بالوفاء، ليعتاد عليه، ويصبح سجية له. ثم وجههم جَلَّ جلاله إلى الطواف الواجب في نسك الحج، وهو الهدف السابع: ﱡﭐ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﱠ وورد التوجيه للحاج بالطواف بصيغة الأمر ﱡﭐ وَلۡيَطَّوَّفُواْ ﱠ وكذلك بصيغة الجمع، ليكون واجباً في حق جميع الحجيج، مما يدل على أن المقصود به هو الطواف الواجب، الذي هو من نسك الحج. بل وردت جميع الأوامر في الآية الكريمة بصيغة الجمع والأمر.

وسمى الله تبارك وتعالى بيته بالعتيق ﱡﭐ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﱠ والعتيق هو: القديم. ومن الدلالات الأخرى التي ذكرها أهل التفسير: أنه عتيق لأن الله تعالى أعتقه من أن يتسلط عليه أحد من الجبابرة، وقيل لأنه لم يمتلكه أحد من الناس، وقيل: لقدمه. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها وجه صحيح. ورجح قول ابن زيد: بأن العتيق: القديم، لأنه قديم[١] وهو الحرم كله. وهذا من سعة المراد، ليستوفي بهذه اللفظة ما تشمله الدلالة. وهو من الإعجاز في البيان.

ﱡﭐ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣ ﱠ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٢٩-٥٣١)

ينتقل السياق الكريم إلى إيضاح وبيان شأن الذين يعظمون ما عظمه الله جَلَّ جلاله ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ بدأت الآية الكريمة بالتنويه عما سبق باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ بمعنى ما سبق من أعمال الحج. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين، أو بين طرفي كلام واحد(١) ليفيد التذكير والتنبيه للعلاقة بين ما سبق وبين ما هو آت من البيان والتوجيه والتعليم ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ فمن يُجلَّ ما سبق من أعمال الحج فيجتنب ما حرم الله تعالى عليه فيه، قاصداً تعظيم لله تعالى. فهو خير له في الآخرة وأفضل، وهو خير له من كل خير يظنه ويحسبه من دون الله عَزَّ وجل. بأن يجتنب ما حرم الله تعالى عليه في الحج، أو في الإحرام تعظيماً لله تعالى. وهو تعظيم ما لا يحل هتكه، وما كلف الله تعالى الحاج به تخصيصاً، وإلا فإن تعظيم حرمات الله تعالى واجبة التعظيم في كل وقت، ولكن قُصد بها هنا ما هو متعلق بالحج الذي قُيد فيه الحاج بأوامر مخصوصة. قال الليث: الحرمة: ما لا يحل انتهاكه، وقال الزجاج: الحرمة: ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه(٢) والتعظيم هو: كريم العناية، والتبجيل والتفخيم، وإظهار الهيبة والرفعة والمكانة للشيء المعظم. فيكون هذا التعظيم لحرمات الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وقال مجاهد رحمه الله تعالى: الحرمة مكة والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها(٣) مما يدل على عظيم حُرمة مكة والحج والعمرة وجميع ما عظمه الله تعالى، وما حرمه. وهذا التنوع في الدلالات يدل على استيفاء المعنى للمراد والمقصد بأقصر وأكمل العبارات، وأكثره شمولية. مما يدل على غزارة معطيات الآية من الأوجه المتظافرة والمتعاضدة والمتكاملة، والذي يدل على الإعجاز البياني.

فإن من يحافظ بالتعظيم والإجلال والقيام بأسس دين الله تعالى وأوامره، وهي ﴿ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الجامعة لما حرم الله تعالى، وما أوجبه سبحانه وتعالى من القيام به، وحَرَّمَ التفريط فيه، فإن هذا التعظيم خير له ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ فكلمة ﴿ فَهُوَ ﴾ تعود على التعظيم ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٥١/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩٣/٥)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٩/٣)

﴿ رَبِّهِۦ ﴾ فهذا التعظيم هو خير له في الآخرة وأفضل، وهو خير له من كل خير يظنه من دون الله عَزَّ وجل، فما سيظفر به من ربه تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة هو خير لا فوقه خير.

ووردت الخيرية بصيغة التفضيل ﴿ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ ليفيد التميز الذي لا نضير له من دون الله تعالى. فإن له على ذلك التعظيم لحرمات الله عَزَّ وجل الثواب الجزيل، والجزاء العظيم، فهو خير له من التهاون فيه. وفي هذا تحفيز وترغيب للحاج بأن يحتسب تعظيمه لحرمات الله تعالى عند ربه. وأن يُعَوِّد نفسه الإخلاص لله تعالى، فيكون قد غرست رحلة الحج فيه جليل المعاني والسلوك والفهم بما يعزز عنده الإخلاص لله تبارك وتعالى في حياته.

ثم يبين الله تعالى لعباده ما أحله لهم، وما حرمه عليهم من بهيمة الأنعام ﴿ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾ وهي: البقر والإبل والغنم. ثم يستثني منها ما كان محرما في كتابه عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فالقاعدة والأصل هو حِلُّ أكل الأنعام ، ويُستثنى منه ما تقرؤونه أو يُقرأ عليكم في كتابه القرآن العظيم، والمذكورة في سورة الأنعام، وهي: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ ﴾

ثم يأمر الله تبارك وتعالى عباده بأن يجتنبوا ما حرمه عليهم، وهي الأوثان جميعاً، وكذلك قول الزور ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾ فيأمر الله تبارك وتعالى المؤمنين أمر تحريم ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ﴾ اتركوه وابتعدوا عن ﴿ ٱلرِّجۡسَ ﴾ وهو النتن، وكل شيء قذر، وهو الخبيث الذي تعافه النفس البشرية. وزيادة في تقبيحه ألصق به الأصنام ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾ فالأوثان هي: الأصنام والتماثيل، فاجتنبوا الرجس الذي هو الوثن، وسماه الله تعالى بالرجس، زيادة في تقبيحه، وتنفير العباد منه، فإن الرجس صفة للخبث والقذارة والوساخة. وفي هذا زجر وتوبيخ، وشدة في النهي عنها، بتقبيحها وتصويرها في أنتن صورة، مع الأمر باجتنابها. وهو الاحتياط من قربها. فاجتناب

الشيء يتجاوز الترك إلى الاحتياط من الاقتراب منه، فيحتاط لنفسه، بأن يجعل بينه وبين ما يحتاط منه بُعداً كافياً. ويدل حرف ﴿مِنَ﴾ على اجتناب الرجس الذي يكون من الأوثان، فهو وصف للأوثان بأنها رجس. أي أن الرجس متمثل في جنس الأوثان. وهو بيان لمجمل الرجس. وبالتالي فإن ذلك يوجب سخط الله تعالى.

ويلحق بهذا النهي في شدته قول الزور ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ وقد عطفه سبحانه وتعالى على اجتناب الرجس، كما أفرده عَزَّ وجل بالنهي ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾ لبيان عظيم خطره وحرمته ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ وقول الزور: يشمل كل قول جانب وحاد عن الحق؛ ومال عنه، فتجمع معانيه: شهادة الزور، والشرك، والكذب، وتحريم ما أحل الله تعالى، وتحليل ما حرم الله عَزَّ وجل. فجمع الله تبارك وتعالى قول الزور مع عبادة الأوثان، لتعظيم حرمته ونجاسته وخبثه، ولأن عبادة الأوثان نوع من الزور، وعموم الشرك هو نوع من الزور، لأن المشرك زَوَّرَ العبودية بما أشرك، وانحرف بها عن حقيقة توحيد الله تعالى، فأشرك مع الله تعالى ما ليس له شراكة معه جَلَّ جلاله، الواحد الأحد، الذي لا شريك له.

وبعد أن أمر سبحانه وتعالى عباده باجتناب الأوثان، واجتناب قول الزور ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ ينتقل البيان والتوجيه الكريم من الله رب العالمين إلى الترهيب من الشرك، ومن حال المشركين، فيأمر عباده أولاً: بالإخلاص له في الدين، والانصراف عن باطل الشرك ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ فكونوا مستقيمين على الحق، بالإخلاص له عَزَّ وجل، وعلى دينه الحنيف، وهو دين الإسلام، وليس على أي ملة أخرى ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ فالحنف هو الاستقامة، مع العدول عن الباطل، وهو ضد الجنف الذي هو الميل عن الاستقامة إلى الباطل، ومنه الشرك. فكونوا حنفاء لربكم بإخلاصكم له وابتعادكم عن الشرك ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ منصرفين في إخلاصكم واستقامتكم عن الشرك.

وجملة ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مع جملة ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ جملتان مؤكدتان لوجوب الابتعاد عن الشرك، وتحقيق الإخلاص له وحده سبحانه وتعالى، كما أن الجملة الثانية ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ مؤكدة ومبينة للجملة التي قبلها، وتفسير لها، وبيان للحنيفة ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ بأنها: الانصراف عن الشرك. مما يفيد وجوب

ما يجب أن يكون عليه العباد من التوحيد الخالص لله تعالى. وفي هذا التأكيد ما يدل على شدة الإيضاح وتقريره بأدق المعاني.

ثم بعد ذلك صَوَّرَ عَزَّ وجل حالة المشرك في أشنع صورة من حيث ما هو عليه، ومن حيث مآله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فبدأ النص الكريم بتخصيص وتعيين فعل الإشراك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فإن من يتلبس بالشرك، وهو بيان وتعيين حال المشرك الذي أشرك مع الله تعالى غيره بأي نوع من أنواع الشرك، من غير تحديد أو تعين أو استثناء، أو حصر. بل هو عام لجميع أنواعه وحالاته من دون استثناء. فإن صورة هذا المشرك وحاله هو ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فصورته وهيئته هي هيئة من انحط إيمانه وسقط في الكفر، سقوطاً من خر من السماء هاوياً إلى الأرض. فسقط من أعلى المراتب إلى أدنى درجات الانحطاط. فحاله هو شبيه لمن سقط من السماء في الفضاء الرحب، ليهوي في بُعدٍ سحيق. فكيف تكون الحالة النفسية والقلبية لهذا الإنسان، وكذلك كيف تكون حالته البدنية، فإنه في حالة من الرعب التي تستثير عنده جميع أنواع الهلع والخوف. وأنه ترك الأرفع والأسمى والأعلى ليسقط هاوياً إلى أدنى ما يمكن أن يكون.

وكلمة ﴿خَرَّ﴾ تدل على هيئة السقوط، بأنه سقوط قوي، متدحرجاً فيه، ليهوي بسرعة رهيبة لا مجال فيه لاستعادة الثبات، والوقوف، واجتناب هذا السقوط المدوي، لأنه فقد قدرته على استعادة وضعه الطبيعي، فلا يستطيع مقاومة قدرة الله تعالى وعذابه. فكلمة خَرَّ كما قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى، تعني: سقط سقوطاً يُسمع منه خرير، والخرير يُقال لصوت الماء والريح، وغير ذلك مما يسقط من عُلو(١) وقال القرطبي رحمه الله تعالى: ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء، أي يوم القيامة، بمنزلة من لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عن نفسه ضراً، ولا عذاباً(٢) فألفاظ القرآن الكريم تصور الحال تصويراً دقيقاً لا مثيل له. وتأتي الدلالة على أنه يهوي يوم القيامة مما كان يجب عليه أن يكون فيه فيما لو استقام على دين الله تعالى، ولكن لشركه سقط في نار جهنم. فلا يملك من الخير ما يستعيد به الوضع الذي كان يجب أن يكون عليه من التوحيد وثوابه وجزائه العظيم.

فهذا الإنسان الساقط سيكتنفه أحد حالين: الحال الأول: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ فتأخذه الطيور الجارحة، في تسابق عليه، لأن الاختطاف هو الأخذ بسرعة، مع التسابق عليه قبل أن يسبق إليه غيره، بما

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١٤٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٨/١٢)

يفيد طمع الخاطفين وفرحهم به، وأنه صيد ثمين وعزيز عليهم. بما يفيد أخذ المعاصي والشهوات له، فهي الخاطفة والجاذبة له بالتسابق إليه، وإيقاعه في شرها، وكذلك أخذ الشياطين له من الإنس والجن، والفرح بأخذه، للانحراف به في مهاوي الهلاك والدمار. كما أن دلالة ﴿ فَتَخْطَفُهُ ﴾ تفيد المبالغة في عملية الخطف، بشدة التسابق إليه، بحيث لا تمهله ولا تتركه.

وأما الحال الثاني فهو ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أي: تقذف به الريح في مكان بعيد مهلك، والهوي يدل على السقوط والنزول في انحدار سريع، فلا يتمالك نفسه ليستعيد وقوفه وثباته. فشركه هوى به في العذاب الأليم. مما يدل على بعد المشرك عن الحق بعداً سحيقاً، فكان مرمى عذابه في انحدار سحيق، أي عميق في بعده. كبعد من سقط من السماء؛ فهوى في مكان لا تُعْرَف نهايته، فهو متباعد في عمقه. فشركه قد هوى به في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا هوى به في الفساد والضلال والبغي والشهوات، وفي الآخرة هوى به في أشد أهوال العذاب وقسوته. مما يدل على أن المشرك في وضع هالك على أي وجه كان، فلا مجال له للنجاة أبداً، وأن هلاكه في صورة عظيمة ومفزعة من الويل والثبور والخيبة. مما يفيد خطورة الشرك، وأنه لا نجاة لصاحبه من العذاب، وأن عذابه حاصل له بأقسى وأقصى ما يكون. وأن هلاكه يكون في صورة عظيمة من العذاب. ففي هذا تقريب لصورة وحال المشرك بأعظم ما يكون من التهويل والتحذير، بسياق وبيان عظيم لصورة وهيئة وحال المشرك. ونعوذ بالله تعالى من الشرك.

ومن جليل فوائد الآية الكريمة تقريب الصورة والفهم للمخاطب، بما يوضح له الحقيقة. حتى يبين له خطورة حال المشرك في الدنيا والآخرة، وما يترتب عليه من الضياع في الدنيا، والعذاب في الاخرة، كما أن في ذلك توسعة لدائرة الأفق والخيال، ليتصور الحقيقة على ما هي عليه بأقرب مثال وصورة وحدث يمكن للإنسان أن يتفاعل معه، ويدركه إدراكاً صحيحاً، مما يبين أن من وسائل التعليم ضرب الأمثال للتسع دائرة فَهْم المتلقي والمتعلم. فإن ذلك المتقدم مما أخبرناكم به من الآيات والقدرة دلالة واضحة وقاطعة بأنه سبحانه وتعالى لا يقبل الشرك معه في أمر من الأمور، فإن الله تعالى هو الإله الحق، وأن كل موجود مفتقر إليه، ولا حاجة له في غيره، لأن كل شيء دونه، وبالتالي كل شيء مفتقر إليه عَزَّ وجل، وهو الغني الأوحد، وأنه الخالق والرب والمسخر وفق إرادته جَلَّ جلاله.

وبعد أن أمر سبحانه وتعالى بتعظيمه في توحيده وإفراده بالعبادة، يأمر عَزَّ وجل بتعظيم شعائره ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ فإن ذلك المتقدم من البيان بوجوب تعظيم شعائر الدين التي هي مناسكه سبحانه وتعالى، وما يجب أن تكونوا عليه من اجتناب الرجس، وقول الزور، والإخلاص له سبحانه وتعالى، والتخلص من الشرك. بما سبق من البيان، وما يترتب على المشرك من العقوبة، فإن الخشية من تلك الأفعال كائنة من أصحاب القلوب التي اتصفت بالخشية والمهابة لله تبارك وتعالى. وموضع

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في الآية الكريمة من الكلام هو للفصل بين الجملتين، أو بين طرفي الكلام الواحد، ليفيد التذكير والتنبيه، للعلاقة بين ما سبق وبين ما هو آت من البيان والتوجيه والتعليم.

فإن تعظيم شعائره عَزَّ وجل من ثمرة ودلائل التقوى التي وقرت في قلوب مَن عَظَّم الشعائر. فإن مَن عَظَّم شعائر الله تعالى فإنه دليل على أن قلبه مفعم بالتقوى. والشعائر: كل ما كان علامة على شيء وتميزاً له، وهي على وجه العموم: أعلام دينه سبحانه وتعالى، وكل شيء أمَرَ وأعَلَمَ لله تعالى به عباده، وأصبح من علامات الدين وشعائره؛ فإنها من شعائر الله عَزَّ وجل، ويدخل فيها شعائر الحج، ومفردات أعماله من البدن والهدي، وذلك بتعظيم اختيارها، وبذل الجهد في انتقائها واستحسانها واستسمانها. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فشعائر الله: أعلام دينه، لا سيما ما يتعلق بالمناسك[١] فتكون عامة بأنها جميع شعائر دين الله عَزَّ وجل، وتكون خاصة فيما يتعلق بمناسك الحج. والمقصود بها هنا: هو ما يتعلق بالحج، ولذلك ورد تعريفها عند ابن جرير رحمه الله تعالى بأنها: تعظيم شعائر الله، وهو: استحسان البدن، واستسمانها، وأداء مناسك الحج على ما أمر الله جَلَّ ثناؤه[٢] وذكر ابن الجوزي، أن من الأقوال: أنها: المناسك، ومشاهد مكة[٣] وقال ابن زيد: الشعائر: الْجِمَار، والصفا والمروة من شعائر الله، والمشعر الحرام، والمزدلفة. قال: والشعائر تدخل في الحرم، هي شعائر، وهي حرم[٤] فإن تعظيم شعائر الله تعالى عموماً من دلالات التقوى.

فبين سبحانه وتعالى دلالة تعظيم شعائره بأنها تظهر في تعظيم ما أمر به ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ فتعظيم شعائره عَزَّ وجل من ثمرة ودلائل التقوى التي وقرت في قلوب مَن عَظَّم الشعائر. فإن من عَظَّم شعائر الله تعالى فإن ذلك دليل على أن قلبه مفعم بالتقوى، لأن الذي دفعه لاختيار الأفضل والأنفس والأمجد حتى ولو تكلف به مالاً عظيماً فإنه هو ذلك الذي وقر في قرارة قلبه من التقوى. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يختار أفضل ما يضحي به، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم. جاء في صحيح البخاري، رحمه الله تعالى: باب في أضحية النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين، سمينين، وقال يحي بن سعيد: سمعت أبا أمامة بن سهل، قال: كنا نُسَمِّن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون[٥] فهذا الاجتهاد والعناية دلالة واضحة على ما في القلب من التقوى لله عَزَّ وجل. فكلما كان التحري أدق وأكثر

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٣٨).

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٣٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٩٤).

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٤١)

(٥) البخاري، الجامع الصحيح، باب: في أضحية النبي صلى الله عليه وسلم.

عناية؛ دل على مقدار التقوى التي يحملها المسلم في قلبه. وبالتالي فإن مَن أراد معرفة مستوى ومقدار التقوى في قلبه فلينظر كيف تحريه لطاعة الله تعالى، واجتنابه لما حَرَّم الله عَزَّ وجل.

والعلاقة بين تعظيم شعائر الله تعالى وبين تقوى القلوب هي علاقة ترابطية ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ فإن التعظيم لشعائر الله عَزَّ وجل مرتبط بتقوى القلوب ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ فهي علاقة الأصل بالنتيجة، فمن كان متأصل فيه تقوى الله تعالى أثمر ذلك تعظيم شعائره جَلَّ جلاله. مما يفيد أن فعل التعظيم هو ثمرة لما في القلب من التقوى. وبالتالي فإن شرط تحقق التقوى في القلب هو تعظيم شعائر الله عَزَّ وجل. مما يفيد أن مكان التقوى هو القلب، ودلالتها تظهر في تعظيم أوامر الله تعالى. فمن عَظَّم أوامر الله عَزَّ وجل فإنه من المتقين، فهي مقياس يستطيع الإنسان أن يقيس نوع ودرجة فعله في الطاعة، إلى أي مرحلة هي، فكلما كان أكثر تعظيماً كان أكثر تقوى.

ومن دقائق البيان هو الترابط بين ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ وبين ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى أن قوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ أخص من ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وذكر الأخص بعد الأعم للاهتمام، وذكر كذلك: أن كل ما أمر الله به بزيارته أو بفعل يُوقَعُ فيه؛ فهو من شعائر الله، أي: مما أشعر الله الناس وقرره وشَهَّره[1] فَحُرُمات الله تعالى جامعة لما حرم الله تعالى، وما أوجبه سبحانه وتعالى من القيام به، وحرم التفريط فيه. والشعائر: المناسك، ومشاهد مكة، ولذلك هي أخص في حال الإحرام.

ويؤكد الله تعالى لعباده تعدد وتنوع منافع هداياهم من البدن ونحوها التي يسوقونها إلى البيت العتيق ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ فلكم أيها المؤمنون الْمُهدُون إلى البيت العتيق هداياكم من البدن ونحوها منافع ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ ﴾ ووردت دلالة منافع عامة، لتستوعب جميع مظاهر منافع نعم الله تعالى عليهم، والتي يتحصل عليها أربابها منها، كشرب ألبانها، واستعمال أصوافها، وركوب ظهورها، وما تحمله لهم من الأمتعة، وغير ذلك من المنافع الدنيوية، إضافة إلى منافعها في الآخرة، من الأجر والمثوبة. وهذه المنافع الدنيوية مؤقته ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: إلى الوقت المقدر والمؤقت، وهو وقت ذبحها عند وصولها إلى البيت العتيق، وهو الحرم كله. ليفيد أنه بعد ذلك ينتفع بها غيركم من الفقراء والمحتاجين

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٩٢/٧).

إذا انتهى الأجل المسمى، الذي هو وقت ذبحها. مبيناً سبحانه وتعالى لعباده مكان ذبحها ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي: أن مكان ومحل ذبحها ﴿إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ والمقصود به البيت القديم، وهو الحرم كله.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن الأرجح في محل ذبح الهدايا: وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ثم محل الشعائر التي لكم فيها منافع إلى أجل مسمى إلى البيت العتيق[١] فبوصولها مكة، وهي كلها حرم؛ تذبح، فينتهي الأجل المسمى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفي هذا تشريع لإباحة الانتفاع بالهدايا انتفاعاً لا يتلفها، وهو رد على المشركين، إذ كانوا إذا قلدوا الهدي وأشعروه حظروا الانتفاع به[٢] وفي هذا البيان دقة عالية في تحديد المراد، بأيسر وأقل الألفاظ، وأكثرها غزارة ودلالة. كما أن في هذا التوجيه تعويد وتربية للنفس على العطاء، وعلى الالتزام من حيث الوقت، ومن حيث المكان. وفيه تعليم الشفقة على الفقراء، والعناية بهم، وخاصة فقراء الحرم. وتعليم النفس السخاء والبذل. وفي الأسلوب القرآني الكريم الترغيب والتنبيه لما ينتفعون به، مع بيان حدود هذا الانتفاع: نوعاً ومكاناً وزمناً. مما يدل على أن منهج الإسلام آية بينة بأنه من لدن رحمن رحيم.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بسنة النسك فيمن سبق من الأمم ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾ فلكل أمة من الأمم السابقة جعلنا لهم تشريعاً فيما يتعلق بشأن التقرب إلى الله تعالى من الذبح الذي يذبحونه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٤٩)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧/٣٩٣).

وينتفعون به ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ فجعل الله تعالى لكل أهل دين أنزله عَزَّ وجل ذبحاً يذبحونه ابتغاء وجهه الكريم، وتقرباً لجلاله ومقامه وعظمته سبحانه وتعالى. والمنسك هو ذبح القرابين. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن المنسك: هو مِن نسك ينسك، إذا ذبح القربان، والذبيحة نسيكة، وجمعها نُسك[1] وهو موضع النحر.

ثم أوضح تعالى لعباده الغاية من تشريعه للنسك ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ فتشريعها لكم ولمن سبقكم من أجل إكثار ذكره سبحانه وتعالى على ذبحها، الذي رزقكم بهذه الأنعام، وهيئها وسخرها لكم بمنّه وكرمه. وبالتالي يلزمكم ذكره وشكره. مما يفيد وجوب التسمية عند ذبحها، وأهمية الإكثار من ذكره عَزَّ وجل، فلأهميته ذكره سبحانه وتعالى شرع هذا النسك من أجل أن تذكروه فتشكروه سبحانه وتعالى على هذا الرزق؛ وهذا التشريع من النسك. وفيه دليل على تحريم ذكر غير اسمه عَزَّ وجل، أو ترك التسمية وإهمالها، بل يجب الاهتمام بها، وتعظيمها، وتعظيم شأنها. فمع اختلاف التشريع إلا أنها متفقة على الأصل. وأن ما يُذبح لا يكون إلا من الأنعام. وفي ذلك أيضاً من الفوائد: أن لله تعالى التشريع بما أراد، وأن شرائع الله تختلف في الوسيلة، وتتفق في الأصل والغاية، وهو توحيد الله تعالى، وعبادته وذكره وشكره، وأن لكل أمة منهجاً. وفي هذا تقرير لوحدة الدين والغاية والهدف، وإن اختلفت شرائعه سبحانه وتعالى فإن ربكم واحد ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ فرب الأولين والآخرين واحد لا شريك له في ملكه وألوهيته وربوبيته.

فيقرر عَزَّ وجل لعباده وحدة الدين والغاية والهدف، وإن اختلفت شرائعه سبحانه وتعالى، لأن ربكم واحد ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ فمعبودكم الذي يجب أن تعبدوه إله واحد أحد. وإن اختلفت شرائع الأنبياء وتنوعت. مما يقرر به وحدانية ربكم تبارك وتعالى، ونفي الشريك بجميع صوره وأشكاله وأنواعه، وأن من اتخذ شريكاً أو معبوداً غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه. وأن هذا الاتفاق في الملة هو غاية التشريع بينكم وبين من قبلكم. وهو دليل وآية وبرهان على وحدانية الله تعالى، وأنه إله واحد لا شريك له.

فبعد هذا البيان والإيضاح بالأدلة والبرهان فإنه يجب عليكم الاستسلام لربكم تبارك وتعالى ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ فله وحده لا شريك له استسلموا وانقادوا له بالطاعة، وليس لغيره، ولا تشركوا في طاعته غيره جَلَّ في علاه. فاستسلامكم لله تعالى بالطاعة دليل على أنكم استجبتم لربكم الواحد الذي أخبركم به، بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ ثم ذكر لعباده بشارة عظيمة لمن استسلم له عَزَّ وجل، فقال

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٥٢/٣)

جَلَّ في علاه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ والمخبتين هم: الخاشعين؛ المتواضعين، المطمئنين، الراضين، الذين يخضعون لربهم في استسلام تام لما أمرهم ربهم به؛ ونهاهم عنه، ولما شرعه وفَصَّله لهم، وذلك في تواضع وتذلل له سبحانه وتعالى. والبشارة من الله تعالى ليست كالبشارة من خلقه، بل بشارته عظيمة في عطائها، ومحتواها ومضمونها، وهي الجنة، وغيرها من الرحمة، والمغفرة ومحو الذنوب، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى. فقد وردت البشارة عامة ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ دون بيان ماهية البشارة، وذلك لتعظيمها في نفس المخاطب، وترغيبه في الاخبات لربه تبارك وتعالى. مما يدل على عظمتها ونفاستها، من الأجر العظيم والمكافأة التي لا يحيط بمعرفتها وصفتها وإدراكها إلا الله سبحانه وتعالى. كما يدل هذا على منزلة الاخبات لله تعالى ومنزلته العظيمة، وهو الخشوع والتواضع والتذلل لله تعالى.

ومن روائع الآية الكريمة هو التتابع المتدرج في البيان، والذي يأخذ المتلقي له نحو إدراك ترابط وتتابع المضمون بما يفضي إلى قناعته بدلائل الآية الكريمة. فأولاً ذكرت الآية العظيمة ما يتعلق باختلاف نسك كل أمة بُعِثَ فيها رسولاً من الله تعالى، وأن هذا النسك الذي أُمِرتُم به يا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هو نوع مختلف مما أُمِرَ به من سبقكم، لأن لكل أمة نسكها الخاص بها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ ثم التدرج إلى بيان الهدف والغاية، وأهميتها، وسموها، وأهمية غايتها التي تفضي إليه من البُشْرَى التي تضمنتها نهاية تمام الآية الكريمة. فالهدف من النسك هو ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ ومن فوائد معرفة الغاية أنها باعثة للنفوس نحو التطبيق والامتثال. ثم التذكير بالنعمة ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ فلستم أنتم الذين رزقتم أنفسكم، بل الله تعالى هو الذي رزقكم ما أُمرتم بذبحه، فالذي أعطاكم إياها هو الذي أمركم بذبحها، وهو الذي يعطيكم ويعوضكم عنها بخير منها، مع تأمل العطاء والتسخير، وفوائد تلك الأنعام التي تنعمون بها.

ثم التدرج إلى الاستنتاج ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إذاً فإلهكم وربكم أيها المخاطبون ومن قبلكم واحد، وذلك لاتحاد النسك، واتحاد الهدف والعلة، مع اختلاف منهج التشريع لكل أمة عن الأخرى، فمع كثرة الأمم المتتابعة التي بعث الله تعالى فيها رسولاً، إلا أن حكمته عَزَّ وجل قضت بتعدد مناهج النسك، ليدل على عظيم قدرته في إحداث التنوع في منهج تشريع كل أمة على حده.

ثم يتدرج إلى قضية الاستسلام، وبيان ثمرته، والتي تتبين وتتأكد من هذا التدرج البياني والتشريعي، والدَّاعم لإيمان المؤمنين ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ فواجبكم الانقياد لربكم الذي شرع لكم هذا النسك، وغيره من التشريع، وليكن استسلامكم مفضي إلى الاخبات، الذي هو الخشوع والتواضع والاطمئنان والرضا، والخضوع في استسلام تام كامل لأمر الله تعالى وتشريعه.

ويتدرج البيان الكريم إلى توضيح هيئة ومسلك المخبتين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: عن هذه الآية الكريمة: فهذا من نعت المخبتين[1] فالمخبتون هم المتصفون بأربع صفات: الصفة الأولى هي: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي ينتاب قلوبهم ويسيطر عليها الخوف والوجل، حين يتم ذكر الله تعالى، لقوة يقينهم. فكأنهم بين يديه سبحانه وتعالى. ويشمل ذكر الله تعالى ما يتعلق بصفاته ووعده ووعيده، وبشاراته، وحسابه، والجزاء والثواب، وكل ما يتعلق بذكره سبحانه وتعالى. وهو دلالة على قوة يقينهم وإيمانهم، ولذلك يحذرون من مخالفة ربهم تبارك وتعالى، أو التقصير في طاعته، أو الوقوع في معصيته. فمن وجل قلبه من ذكر الله تعالى كان أبعد عن المعصية، وأكثر تمسكاً بالطاعة.

والصفة الثانية للمخبتين هي: الصبر ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ فإنهم حين ورود المحن والابتلاءات عليهم، يتصفون بالصبر، وعدم الجزع، فإنهم يرجون مرضات الله تعالى بذلك الصبر، وجزيل ثوابه، محتسبين المثوبة والعاقبة الحسنة عند الله الكريم المنان، الرحمن الرحيم. والصفة الثالثة للمخبتين، هي إقامة الصلاة: ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: يؤدون الصلاة على أكمل وجه، فيقيمونها في أوقاتها؛ على الهيئة والصفة المطلوبة، فهم يؤدون حقوق الله تعالى فيما افترضه عليهم. والصفة الرابعة للمخبتين: هي الصدقة: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي: يتصدقون بما آتاهم الله تعالى من طيبات الرزق. سواء كان مالاً أو ثماراً، أو طعاماً، أو أي رزق يرزقه الله تعالى العبد. فهي عامة وشاملة لأنواع الرزق، لأن من دقائق بيانها: تعميم الرزق، ليتناسب ويتوافق مع تنوعه وتعدده عند العباد، من الأموال، والطعام، والزروع، والعقار، وغيرها من أنواع الأرزاق التي لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

كما أن الإنفاق يكون في شيء منه وليس كله، فكلمة ﴿ وَمِمَّا ﴾ أفادت التبعيض، أي: بعضاً منه، فتعطي للمؤمن رحابة في تقدير مقدار العطاء، الذي يرى أنه مناسب له؛ ولمن يعطيهم، فيكون عطاؤه بذلك عن طيب نفس، بما تجود به نفسه، وبحسب المصلحة التي يراها مناسبة له ولمن يعطيهم. ونسب سبحانه وتعالى الرزق له عَزَّ وجل ﴿ رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ فلستم أنتم الذين رزقتم أنفسكم، بل الله تعالى هو الذي رزقكم بما هيأه لكم، وسخره لكم، ومكنكم من تحصيله. وبالتالي استجيبوا لما أمركم به من النفقة، فهو المتكفل برزقكم. لينتفي

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٥٢/١٦)

الخوف من الإنفاق. للعلم واليقين بأن الذي اعطى ابتداء هو الذي يخلف بخير منه. وفي هذا منهجية تربوية عظيمة للعباد على السخاء بطيب نفس، وفي أمل واسع عظيم.

وفي هذا بيان وتوجيه واستحثاث للمؤمنين بأن يدركوا هذه المعاني ويتحلوا بها في حياتهم، ويجتهدوا في التمسك بها، فهي تمثل العلاقة بين العبد وربه، وبين العبد ونفسه، وبين العبد ومجتمعه. فهي مستوفية لتربية المؤمن على كمال الخصال في جميع الجوانب. كما أن هذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾** ﴾ مما يدل على الترابط والتلازم بين صفات المؤمنين وصفات المخبتين.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى تشريعه للبُدْن، بأن جعلها من شعائره، مع تأكيد ما يحصل بها من الخير للعباد، ووجوب التسمية عند ذبحها، وسنة الأكل منها، وإطعام الغير ﴿ **وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ يذكر الله تعالى لعباده فضل ما امتن به عليهم من تشريع الشعائر التي منها ذبح البدن، والإفادة منها. والبدن هو الضخم من كل شيء ﴿ **وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ** ﴾ يمتن الله عَزَّ وجل على عباده بما خلق لهم من البدن، وبما شرع لهم من ذبحها، والأكل منها. مؤكداً سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة على ما سبق في شأن النسك، وتخصيصه لها هنا في البدن، بعد تعميمها فيما سبق ببهيمة الأنعام ﴿ **لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ** ﴾ ليدل على أولويتها وزيادة فضلها على غيرها، لما فيها من كثرة لحمها، واستيفائها للعدد الكثير من الناس.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يمتن الله تعالى على عبيده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره ﴿ **وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ** ﴾ وهو أنه جعلها تُهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يُهدى إليه[1] والبدن هو الضخم من كل شيء. وسُمِّيت بالبدن لضخامتها واسترخاء لحمها. قال عطاء: البدن: البقر والبعير[2] فالبدن لا يقتصر على البعير، بل يشمل البقر والبعير. وكذا روي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: قلت: أما إطلاق

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٣١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٥٣)

البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا في صحة اطلاق البدنة على البقر على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً، كما صح الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة، والبقر عن سبعة كما ثبت به الحديث عن مسلم[١] فالبدن هي البعير، ويدخل معها البقر اصطحاباً في التسمية، لوجود قرينة الضخامة والوفرة في اللحم، وأنها تتساوى مع البعير، إذ أن البعير يجزئ عن سبعة، والبقر مثله يجزئ عن سبعة، وهما من شعائره سبحانه وتعالى.

فإهداء البُدْن إلى بيت الله الحرام قد جعلها الله تعالى من شعائر دينه القويم ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ فإن الذي جعلها شعيرة في الدين هو الله سبحانه وتعالى﴿ جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ ﴾ بتشريع ذلك في دينه. فزادت منزلتها ومكانتها وأهميتها، ومن مزيد تعظيمها أن نسب سبحانه وتعالى هذه الشعائر له عَزَّ وجل ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ فجملة ﴿ جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ ﴾ وكذلك جملة ﴿ مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ تبين منزلتها، بأنها مفردة من مجموع شعائر الله تعالى المتعددة. مما يدل على التحضيض على التمسك بهذه الشعيرة، وأدائها عن طيب قلب، باختيار الأجود والأسمن والأفضل.

ثم بين تبارك وتعالى أن في هذه البدن خير لمن أداها ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ فلكم فيها خير أيها المؤمنون الْمُهدُون إلى البيت العتيق هداياكم من البدن ونحوها ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي: منافع دينية ودنيوية. ووردت دلالة الخير عامة، لتستوعب جميع مظاهر نعم الله تعالى عليهم من خير الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بما يتحصل عليها أربابها منها، من شرب ألبانها، واستعمال أصوافها، وركوب ظهورها، وما تحمله لهم من الأمتعة، وغير ذلك من المنافع الدنيوية، إضافة إلى خيرها في الآخرة، من الأجر والمثوبة.

ومن جميل البيان وغزارة دلالاته، هو: تنوع صيغة الحث على هذه الشعيرة، ففي هذه الآية ذكر سبحانه وتعالى ما يتحقق لهم بها من الخير ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ بينما في آيتين سابقتين من هذه السورة ذكر سبحانه وتعالى النفع ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ والنفع أخص من الخير، خاصة أن أحد الآيتين ضُبِطَت بوقت محدد، وهو إلى حين ذبحها ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وتعيين مكانها ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ ليفيد إباحة الانتفاع الدنيوي منها حتى يتم ذبحها، فخصص ذلك بكلمة الانتفاع. وتغليبه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٣٢/٣)

على الانتفاع في الآخرة؛ باعتبار المقصد القريب، والانتفاع الحال منها. ويمكن الاستنتاج من ذلك: أن استخدام كلمة النفع مع محدودية الزمن يفيد أنه يغلب على دلالتها المباشرة للانتفاع، أو قُرب المباشرة للانتفاع، أو أن يحصل الْمُنتَفَعُ به عندما يريده الْمُنتَفِع. بينما سياق الخير ﴿خَيْرٌ﴾ من دون اقترانها بزمن محدد يعطي دلالة الامتداد الزمني، فقد يكون قريباً، أو بعيداً، أو الجمع بين القرب والبعيد، فيكون قريباً وبعيداً. فهو عطاء ممتد في زمنه ونوعه. فيشمل الانتفاع به مباشرة وغير مباشرة، ويشمل الأسباب غير المباشرة، كالتوفيق للشيء وجوداً، وتسهيلاً وتيسيراً. وكذلك كالعطاء والتحصيل من غير جهد، ومن غير مظنة التحصيل.

والمنافع غالباً ما تكون بجهد من المنتفع. بينما الخير قد يأتي من غير جهد، أو من جهد أثناء التحصيل، فمن الخير التوفيق والتيسير، فيحصل إتيانه من دون مشقة، بينما الانتفاع من موجود مع بذل السبب ولو بقليل المشقة. وكذلك يكون من شيء موجود، أو حاضر الوجود. والخير أعم، فقد يكون كذلك من الموجود، وقد يأتي بعد حين. والخير يكون فيه صفة الهبة؛ ثم يحصل منه الانتفاع بعد وجوده ووصوله، ثم تحصيل المنفعة منه، وهو الانتفاع. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى عن ورود المنافع بصيغة النكرة ﴿مَنَٰفِعَ﴾: لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة، دينية ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادات[١] بينما في الآية الثانية: ورد الخير بدل الانتفاع ليدل على العموم، والاشتراك في الانتفاع، وتغليب الانتفاع في الآخرة، بما يفيد إحداث التوازن في نفس المؤمن بين منفعة الدنيا والآخرة، وأن يُغلِّب خير الآخرة، الذي لا ينعدم منه خير الدنيا من الرحمن الرحيم. والله تعالى أعلم.

ثم يؤكد تبارك وتعالى بوجوب ذكر اسمه عليها بعد أن ذكره في آية سابقة ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ وقد ورد في هذه الآية بصيغة الأمر ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ ليفيد التأكيد على أنه أمر واجب. فاذكروا اسم الله تعالى على البدن عند نحركم إياها ﴿صَوَآفَّ﴾ أي: وهن قائمات على ثلاث، معقولة اليد اليسرى، وبقولكم: بسم الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: بسم الله، والله أكبر، لا إله إلا الله، اللهم منك ولك[٢] قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: قائمات، بأن

(١) الزمخشري، الكشاف (١٥١/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٣٢/٣)

تُقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر[١] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والمراد بذكر اسم الله، ذكر التسمية عند الذبح والنحر[٢] مما يدل على أهمية التسمية، وأنها من ذكر الله تعالى.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى في تتابع متسلسل بما يتخذونه بعد ذبحها ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فإذ سقطت على الأرض بعد نحرها، وهو معنى ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ ﴾ كناية عن موتها. فالوجوب من ﴿ وَجَبَتْ ﴾ هو الوقوع: أي: وقوعها ميتة، وجب الطعام، أي حل وقته، ومنه قولنا: وجب الإفطار، أي حل وقته. ومنه: وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب. وجملة ﴿ وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ سقطت بعد موتها على جنبها أو ظهرها. ومن دقائق البيان: أنه لم يَرِد اسم الْبُدْن، وإنما ورد اسمها بالحال التي هي عليه، وهو وقوع الموت بها ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي: البدن. كما وردت باسم الجمع ﴿ جُنُوبُهَا ﴾ الذي يفيد الكثرة، ويفيد المبادرة في ذبحها ونحرها، بحيث تذبح جميعها، ليكثر الخير ويعم الانتفاع. فقد حث سبحانه وتعالى على المبادرة في الإفادة منها ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ فبادروا بالأكل منها، وإطعام المحتاج. وقد قرن سبحانه وتعالى بين أكل المتقربين إلى الله تعالى بها وبين المحتاجين إليها ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ فبادروا بالأكل منها أيها المتقربون بها إلى ربكم جَلَّ جلاله. وهو أمر استحباب، وإباحة. قال مجاهد رحمه الله تعالى: إن شاء أكل، وإن شاء لم يأكل، هي رخصة[٣] فورد الترتيب الذي يفيد المبادرة بطبخها والأكل منها.

ثم أمرهم بإطعام غيرهم منها، مخصصاً ومبيناً لهم من يُطْعِمُون ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ وهما صنفان أحدهما ﴿ الْقَانِعَ ﴾ الذي يقنع بما أعطي، أو بما عنده، ولا يسأل. والصنف الثاني: هو ﴿ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ الذي يتعرض لك أن تطعمه من اللحم، ولا يسأل. ومن دقائق البيان أن الأمر للمتقربين بما نحروا وذبحوا قد ورد بدلالة الأكل ﴿ فَكُلُوا ﴾ بينما ورد الأمر فيما يخص غيرهم بالإطعام ﴿ وَأَطْعِمُوا ﴾ لأن الإطعام أعم من الأكل، فالأكل هو مباشرة الأكل، بما يقتضي ذهاب الطعام إلى الجوف، أي: مباشرة الأكل. بينما الإطعام

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣٢٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٩)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٦٢)

أعم، فهو إعطاء الطعام، فقد يكون مطبوخاً مستوياً، وقد يكون غير مستوياً، بما يحصل به الأكل لاحقاً. وهذا من دقائق البيان الذي يدل على الإعجاز اللفظي والدلالي في كتاب الله العزيز الحكيم.

وقد سَمَّى الله تبارك وتعالى من يُطعمونهم باسمين ﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ وقد ذكر العلماء أقوالاً كثيرة ومتعددة في معناهما، بما يدل على استيعابهما لجميع المقصودين بالإطعام: فقالوا: القانع: الذي يقنع بما أعطي، أو بما عنده، ولا يسأل. والمعتر: الذي يتعرض لك أن تطعمه من اللحم، ولا يسأل. وقال آخرون: القانع: الذي يقنع بما عنده ولا يسأل. والمعتر الذي يعتريك فيسألك. وقيل: القانع هو: السائل، والمعتر هو: الذي يعتريك ولا يسأل. وقيل: القانع هو: الجار. والمعتر: الذي يعتريك من الناس. وقال آخرون: القانع: الطوَّاف. والمعتر: الصديق الزائر[1] ولعل القانع هو: الذي يرضى بما عنده، ولا يسأل. والمعتر هو: الذي يتعرض ولا يسأل. وهذا الاتساع في الدلالة، يفيد سعة الغاية التي استوعبت جميع تلك المعاني والمقاصد في الوصف.

وفي هذا عناية بالمتعفف، وعناية بالمستحي الذي يتعرض ولا يطلب. وبلا شك أن هذا التخصيص يفيد التنبيه، والتحضيض على هؤلاء، بما يفيد عناية الله تعالى بمن لا يسأل الناس إلحافاً، والمتعففين والمقتنعين والمتكففين، ولا يعني هذا عدم إعطاء من يسأل، وإنما هو للتنبيه، لأنه باستقراء منهج الله تعالى يجد كثرة الحض على إعطاء السائل، بل نهى عن نهره، بالتأدب معه، كما ورد في سورة الضحى ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾

ثم يمتن الله تعالى على عباده بما سخر لهم من البدن والأنعام، فذللها لهم، وأحل لهم أكلها ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وبمثل وصفنا لها، وبياننا لكم نحرها، والتسمية عليها، وأكلها، والإطعام منها ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ فلولا تسخير الله تعالى لكم إياها: خلقاً، وتذليلاً، وتحليلاً، لنفرت منكم، ونفرتم منها. ثم يستحث ربنا تبارك وتعالى المعنيين بالخطاب إلى شكره عَزَّ وجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فعلة التسخير والتوفيق والهداية لهذه النعمة تستوجب منكم الشكر الدائم لربكم الذي سخر لكم هذه النعمة وهداكم إليها. وأفادت **(لعل)** الحث والترغيب والتحضيض لهم على مداومة الشكر. وورد الشكر بصيغة المضارع المستمر، ليفيد الشكر الدائم المستمر الذي لا ينقطع. فكيف بجميع النعم التي لا تحصى ولا تُعد. اللهم وفقنا لشكرك وذكرك بما يرضيك عنا.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٦٢-٥٦٩)

ثم يختتم سبحانه وتعالى بيانه عن شعائر الحج، بإيضاح المقصد من ذبح ما يذبحونه من مناسك الحج ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فلا تتحصل لله تعالى منفعة من لحوم ما تذبحونه وتنحرون من النسك، ولا من دمائها ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ فالنيل هو الإصابة والتحصيل والوصول، فلن يصل إلى الله تعالى من ذلك شيء البتة، ليفيد كمال الغنى، فربكم غني عن خلقه، فما تنتفعون به لا ينتفع الله تعالى به، فالانتفاع محصور عليكم. فموقع التعبد من ذبحها هو طاعتكم بها لربكم سبحانه وتعالى، والانتفاع هو للناس منها، سواء الْمُهدُون أو الْمُهْدَى إليهم. وحرف ﴿ لَن ﴾ يفيد النفي المطلق من أن يحصل لله تعالى منها شيء من النفع. وبدخول ﴿ لَن ﴾ على الفعل المضار ﴿ لَن يَنَالَ ﴾ يفيد النفي القطعي حاضراً ومستقبلاً ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ولكن الذي يصل إليه منكم هو ما تنتفعون أنتم به، وهو ﴿ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي: إخلاصكم له عَزَّ وجل، فيثيبكم عليه. ثم يؤكد سبحانه وتعالى هذا الشأن مع التعليل المحفز لتحصيل التقوى بالاتباع والإخلاص، فيقول تبارك وتعالى ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ فمن أجل ذلك سخر لكم البدن، لتحصيل التقوى عملاً ونية وإخلاصاً وطاعة منكم لربكم بما شرع لكم ﴿ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ لتعظموه بتكبيره وتمجيده عَزَّ وجل على ما هداكم إليه من الدين، ووفقكم له، وكذلك على ما سخره لكم من الأنعام.

ثم يتم اختتام الآية الكريمة، ببشارة عظيمة منه تبارك وتعالى، بل يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بإبلاغ هذه البشارة ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فناقل البشارة هو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ وبشر يا أيها النبي المحسنين. وفي ذلك رفع لمستوى البشارة، فهي من الله تعالى، وفي كتابه الكريم، ومنقولة على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، فهي تشريف للمؤمنين، وتشريف لنبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم. والْمُبَشَّرُون بها هم ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين أطاعوا ربهم بأحسن الأداء وأكمله، فأقاموا حدوده سبحانه وتعالى. مما يبين فضل من أقام شعائر الله تعالى بأحسن وأكمل الأداء، حتى يكون من المحسنين المُبَشَّرين. ومن جميل البشارة وقوتها وشحذ الهمم لها أن الله تعالى لم يعينها: لا نوعاً ولا قدراً، لتستوعب أعلى درجات ما يتمناه المؤمن، وهو دخول الجنة، وغيرها من خير الدنيا والآخرة؛ التي لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى. وأجمل وأقوى ما فيها أنها من الله سبحانه وتعالى، لأن البشارة تَعْظُم بعظمة مُعطيها، والمعطي لها هو ربنا تبارك

وتعالى، الذي له ملك السماوات والأرض، الغني الْمُغْنِي سبحانه وتعالى. مما يدل على عظيم كرمه وإحسانه جَلَّ في علاه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

بعد بيان شعائر الحج، ينتقل السياق الكريم إلى أحكام الدفاع عن المؤمنين، وتحقيق التمكين لهم إذا التزموا بحدود ما شرع لهم سبحانه وتعالى، ولم يخالفوا أمره. وبدأ البيان بهذا الإعلام العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ يخبر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين خاصة، وجميع الناس عامة: بأنه ولي المؤمنين، فيدفع عنهم غائلة الكافرين، ويمنعهم من المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ففيه تطمين للمؤمنين، وتهديد للمشركين، والكافرين عموماً. وفيه إظهار ولاية الله تعالى لعباده المؤمنين. وفيه تأكيد نصرهم على من عادهم، وبالتالي بشارة متحققة لهم، بإعزازهم وإذلال من يعاديهم. كما أن السياق لم يحدد موطن الدفاع، ليكون شاملاً، لكل نوع، وكذلك عاماً لكل زمان، ولكل مكان. وسماهم بالمؤمنين، ليكون شرطاً. قال السعدي رحمه الله تعالى: إن الله يدافع عنهم كل مكروه، من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف. كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر[1] وقد سبق الوعد حرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ كما أفادت ﴿يُدَٰفِعُ﴾ بقوة الدفع والمغالبة، لأن المغالبة في الدفاع

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣٢٣)

تكون أبلغ في تحقيق النصر وتوكيده، فصيغة المبالغة مع كونه فعل مضارع أفاد الاستمرار وتكرار المدافعة عن المؤمنين. وفي ذلك بيان لفضل الإيمان، وعلاقته بقوة المؤمن، ونصره، والحيلولة دون وقوع المكروه به.

وفي نفس الوقت يوجه سبحانه وتعالى المؤمنين إلى التزام ما أمرهم به، من حفظ أمانتهم، في عهودهم ومواثيقهم، وفي جميع حالات الأمانة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ فإن محبة الله سبحانه وتعالى لا تكون لمن اتصف بالخيانة، وهو الغدر بالأمانة، والجاحد بنعمة الله تعالى عليه، فيقابل نعمة الله تعالى عليه بالجحود والنكران المتعاقب والمتوالي لها. قال الطبري رحمه الله تعالى: جحود نعمه عنده. لا يعرف لمنعمها حقه، فيشكره عليه[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا. ﴿خَوَّانٍ﴾ وهو الخيانة في العهود والمواثيق، فلا يفي بما قال. ﴿كَفُورٍ ﴾ والكفر: الجحد للنعم. فلا يعترف بها[٢]

وفي هذا تعليل بما وعدهم به من الدفاع عنهم، وجعل العاقبة لهم، والخزي على من أرادهم بسوء. فإن من اتصف بالخيانة وجحود ما أنعم الله تعالى به عليه، فإنه مبغوض من ربه وخالقه، فقد انتفت محبة الله تعالى عنه، وبالتالي لا ينتظر مدافعة الله تعالى عنه، بل الخزي والسوء لاحق به. فإن محبة الله تعالى لا تكون لمن تلبس بالخيانة، وجحود النعمة. مما يدل على أهمية حفظ العهود والمواثيق، وجميع ضروب الأمانة، والاعتراف بالنعمة، وشكر الله تعالى عليها، وعدم التنقص منها، فإن من تلبس بالخيانة والجحود فقد انتفت عنه محبة الله تعالى، وحصل له البغض من ربه جَلَّ جلاله.

فيلزم المؤمن العناية بهذا الشأن حتى يكون الله تعالى حافظاً له؛ ومدافعاً عنه. فإن أضداد المؤمنين هم الخونة، الذين يخونون أماناتهم، ويغمطون نعم الله تعالى بكفرهم بها، ومنها كفرهم بنعمة الرسالة التي جاء بها رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فقد ذمهم تبارك وتعالى بأقبح ما عندهم، وهي الخيانة. بل ذم شأنها بصيغة المبالغة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ والخوان هو: كثير الخيانة، وشديد الغدر بالأمانة. وهي من صيغ المبالغة. وكذلك ﴿كَفُورٍ ﴾ أي: شديد النكران للنعمة، حتى بالغ في نكرانها بجحودها وهو معنى الكفر، وسبق هاتين الصفتين التعميم ﴿كُلَّ﴾ وقبلها النفي المؤكد بحرف التأكيد ﴿إِنَّ ﴾ فهذا البيان التقريري من الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ يبين محبة الله تعالى للأمين الشاكر، وبغضه لمن كفر

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧١/١٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٣٥/٣)

بنعمته، وأجل هذه النعم هي نعمة الإيمان، ونعمة الرسالة التي بعث بها رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ونعمة الهداية لمن هداه للإسلام، وغيرها من النعم التي لا حصر ولا حدود لها من كثرتها وتنوعها.

ثم يأذن الله تبارك وتعالى للمؤمنين بقتال من يظلمهم، بعد أن كان ممنوع عليهم قتال الكفار لحكمة جليلة عظيمة ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فبدأت الآية الكريمة بالإذن، بما يدل على أنه غير مأذون لهم في السابق ﴿ أُذِنَ ﴾ بما يفيد الإباحة والرخصة بعد المنع. بأن يقاتل المأذون لهم من يقاتلهم ظلماً ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ وجعل سبحانه وتعالى سياق الإذن بإضمار الْمُخَاطَب، بعدم تسمية وإظهار المأذون لهم، فلم يخصصه تعيناً، فورد الإضمار لدلالة النص على المحذوف، بأن المأذون لهم هم المؤمنون، لما كان لهم من عدوهم. فقد قُوتِلُوا من أعدائهم، فيأذن لهم بأن يقاتِلُوا من يقاتلهم. وليشمل الحكم بالقتال من جميع المؤمنين في عهده صلى الله عليه وسلم، وفي جميع العهود والأزمان. مما يبين أنه حتى القتال في شريعة الإسلام وفق إذن من الله تعالى، وبضوابط سَنَّتْها شريعة الله تعالى. وفي هذا إعجاز تشريعي وبياني وبلاغي، بترك ما يغني عنه غيره، وحذف زوائد الألفاظ بالاستغناء عنها، لمقام غيرها بمقامها. ولكن ذكر المأذون لهم فيه، وهو مشروعية القتال، فخصهم بما وقع عليهم من الظلم. لإبراز وإظهار ظلم عدوهم لهم.

وذكر سبحانه وتعالى موجب القتال وهو الظلم ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ فليس الإذن لهم من أجل الانتصار، وظلم غيرهم بالقتال، بل لمنع الظلم وإيقافه من عدوهم. كما أن الظلم ورد عاماً ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ ليشمل جميع أنواع الظلم، ويستوعب إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من ديارهم، وجميع أنواع الأذى الذي نال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنه. مما يدل على قوة منهج الإسلام، وعدله، وحفظه للدماء. وأن الله تعالى لا يحب الظلم والظالمين. وأن الله تعالى ناصر المؤمن المظلوم على من ظلمه. وفي تأخير الإذن لهم بالقتال، ما يدل على أهمية الصبر، وأخذ الأمور بحكمة.

وذكر عَزَّ وجل النتيجة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فإن الله تعالى قادر على نصرهم، وهزيمة عدوهم، وأن نصرهم متحقق بمعيته لهم سبحانه وتعالى، وبهزيمة عدوهم، وفيه بشارة بتحقيق النصر للمؤمنين ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل قادر على نصر المؤمنين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في

طاعنه[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وذُكِّروا بقدرة الله على أن ينصرهم. وهذا وعد من الله بالنصر وارد على سنن كلام العظيم المقتدر، بإيراد الوعد في صورة الإخبار، بأن ذلك بمحل العلم منه[٢] وفي ذلك بيان على قدرة الله تعالى، وأن المشيئة له وحده عَزَّ وجل، وفيه كذلك التشويق لهم بنصر الله تعالى، والتحفيز لهم بأن يبذلوا غاية ما يستطيعون من الطاعة التي يتحقق بها نصر الله تعالى، مؤكداً ذلك بنون التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ التي تؤكد خبر ومضمون ما بعدها، بأن الله تعالى قادر على نصرهم، فما عليكم إلا الأخذ بالأسباب الموصلة للنصر. وفي ذلك تقوية ومؤازرة للمؤمنين، بما يشجعهم على الدفاع عن النفس؛ بمقاتلة من أراد إلحاق الظلم بهم.

وفي أسلوب الآية الكريمة ما يفيد تهيئة نفوس المؤمنين بمقاتلة الظالمين، بل وحفزهم على ذلك بذكر ظلم الكافرين على وجه العموم. مما يدل على أن في سياق الآية الكريمة الكثير من المراد القلبي، والتهيئة، حتى في إبانة النصر، برده إلى قدرة الله تعالى على نصرهم وإعزازهم.

ثم يذكر الله تعالى تنوع الظلم الذي لحق بالمظلومين من المؤمنين، فشرع لهم بتلك الأسباب مقاتلة الظالمين ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ يصف سبحانه وتعالى حال المؤمنين الذين شرع لهم وفيهم مشروعية القتال ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ بأنهم أُلجئوا إلى الخروج من ديارهم؛ عندما حَلَّت بهم فتنة وأذية الظالمين لهم من مشركي مكة. فكان إخراجهم بغير حق مُوجِب لذلك ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ من غير وجه حق مشروع يُوجب عليهم ذلك التضييق للإخراج ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ إلا أنهم أسلموا لربهم، ونبذوا الشرك، ووحدوا ربهم عَزَّ وجل ﴿يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ معلنين توحيدهم، بجهرهم بإسلامهم وعبادتهم، وتوحيدهم لربهم تبارك وتعالى.

ومن جميل ودقائق السياق ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى: بأن الاستثناء في قوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ استثناء من عموم الحق، كان هذا الاستثناء مستعملاً على طريقة الاستعارة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٣٥)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧/٤٠٤)

التهكمية، فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحق عليهم[١] فهو تهكم في منطوق المشركين للحق، فجعلوا الظلم حق. فيؤكد عدم استحقاق من آمن للأذى والإخراج، وأن في إخراجهم بغي وظلم. مما يدل على أن إشهار المؤمنين لإيمانهم لم يرض عنه المشركون، وغاظهم إيمان هؤلاء المؤمنين. فهو تعدي عليهم بغير وجه حق.

ثم يخبر الله تعالى بسنته في المداولة والمدافعة بين الناس وأثرها في حفظ العباد وأمكنتهم ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ولولا سنة التدافع بين الناس، التي يدفع بها عَزَّ وجل بين العباد شرورهم، بما يتطلب ويقتضي حال هذا العالم. وإرادة البعض الإفساد في أمكنة العبادة التي لها مهابة في قلوب العابدين. وفي هذا التخصيص المتعلق بأثر التدافع في حفظ أمكنة العبادة، دليل وإشارة إلى أن فيما هو أدنى من أمكنة العبادة أكثر عُرضة للتخريب والتعدي بسبب الأطماع واختلاف النوايا والعقول، والتحاسد والتباغض. فمن رحمته تبارك وتعالى دفع الناس بعضهم ببعض.

ومما عالج الله تعالى به أمور الناس في شأن التعدي هو ما شرعه جَلَّ جلاله للأنبياء والمؤمنين من قتال أعداء الدين ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ فلولا أن الله تعالى دفع الناس بعضهم ببعض بما سنه من القتال ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ لنقضت وخرّبت وأزيلت أمكنة الدين ومعالمها، من قبل الكفرة والمشركين. فلولا ما شرعه الله تبارك وتعالى للأنبياء من قتال الأعداء لعطل أهل الكفر معالم الدين وأماكن العبادة. وذكر سبحانه وتعالى ما كان من الأديان السماوية الماضية، لبيان أن هذا التدافع ليس أمراً حادثاً؛ وخاصاً بكم، بل هو ناشئ فيمن كان قبلكم، فذكر عَزَّ وجل الصوامع ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ ﴾ وهي معابد الرهبان ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ وهي معابد النصارى ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ أي: مواضع الصلوات لليهود، أي كنائس اليهود. ﴿ وَمَسَٰجِدُ ﴾ أي: مساجد المسلمين. قال الزجاج رحمه الله تعالى: لولا دفع بعض الناس ببعض لهدمت في زمان موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمان محمد صلى الله عليه وسلم المساجد[٢] وقد تعددت الأقوال في تلك المسميات.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله

(١) المرجع السابق (٧/٤٠٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٩٩)

كثيرا[١] وقد وصف سبحانه وتعالى مساجد المسلمين بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴾ أي: يذكرون فيها ربهم سبحانه وتعالى ذكراً كثيراً. بما يفيد المبالغة في الذكر لربهم حتى اتصفت بالكثرة، بل إن الذي وصفه بالكثرة هو ربنا تبارك وتعالى، وفي هذا تزكية للمؤمنين بعمارتهم للمساجد بالذكر الصحيح الْمُزَكَّى من الله عَزَّ وجل. من الصلوات الخمس، والاعتكاف، وما يقام فيها من حلق العلم. وفي هذا مدح وثناء للمسلمين بما هم عليه، وبما سيكون منهم من عمارة مساجدهم بكثرة ذكرهم لله سبحانه وتعالى. مما يفيد أن من عِلل هدمها من الكفرة هو محاربة ذكر الله تعالى، الذي ينكره الكفرة. فوجب حفظها بمدافعة الكافرين بجميع أنواع وسائل المدافعة، وقد بينت هذه الآية الكريمة أن الجهاد شأن وأمر متقدم فيمن كان قبلكم، من أجل حفظ الدين، فهو لكم كذلك مثل من سبقكم.

وفي ذلك تشريع للمؤمنين بقتال المشركين، من أجل دفع تدافعهم على طمس الدين، وتخريب معالمه. وأن الجهاد شأن وأمر متقدم فيمن كان قبلكم لحفظ الدين. وكذلك فيه تعليم واستحثاث للمؤمنين بأهمية المدافعة والمناجزة والمحاربة، بما تقتضي سُنَّةُ الله تعالى في إبقاء الحق؛ ودحر الظلم بهذه المدافعة. فيخبر سبحانه وتعالى المؤمنين بهذه السنة الكونية، وهذه المنظومة من التدافع بين الحق والباطل حتى لا تُنتَهَك ولا تندرس ولا تزول معالم الدين ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ ﴾ مما يبين أهمية القوة التي تُحدث الرهبة في قلوب أعداء الملة، ويستفاد من ذلك: إن لم تقوموا بمدافعة أعدائكم خير قيام فإنه سوف تتداعى عليكم الأمم الحاسدة والكارهة لدين الإسلام، فيحصل التخريب لمساجدكم التي هي معالم الدين الظاهرة بالبناء والتشييد.

ثم يؤكد جَلَّ في علاه ذلك الحفظ بالمدافعة؛ بأن أوجب نصرة الدين بأسلوب استحثاث واستنهاض النفوس المؤمنة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ فليتحقق النصر لمن ينصر دينه تبارك وتعالى، وأن هذا النصر هو نصر مؤكد من كل وجه. لأن من سنن الله تعالى في حفظ الدين ومعالمه هي النصرة له، والمناصرة تكون بالمدافعة من المؤمنين أنفسهم، بأن ينصروا الدين بكل قوة ووسيلة، والتي منها الجهاد، مؤكداً لهم سبحانه وتعالى أنه ناصر من ينصر دينه ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾

ولأهمية نصرة الدين فقد نسب سبحانه وتعالى نصرته لمن ينصر دينه ﴿ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ أي: ينصر دينه. ومؤكداً ذلك بلام القسم ونون التوكيد ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ﴾ ثم علل تبارك وتعالى نصرته لمن ينصره ببيان

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٦/١٦)

قوته في تحقيق النصر المؤكد لمن نصر دينه، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ فإن الله تعالى متصف بالقوة والقدرة على تحقيق ما يريد، وأنه العزيز الذي لا يرام ولا يُمَانَع، ولا يمتنع عليه شيء، فسلطانه فوق كل سلطان، وقوته فوق كل قوة، وقدرته فوق كل قدرة. مما يؤكد ويبين أن من نصر دين الله تعالى بأي وسيلة حقق الله تعالى له النصر. وأظفره على من مانعه وعاداه. فأكد تبارك وتعالى ذلك بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ التي تؤكد تحقق ما بعدها، مع بيان صفته سبحانه وتعالى المؤكدة لتحقق النصر بأنه القوي ﴿ لَقَوِيٌّ ﴾ ثم أكدها بصفة ثانية: أنه جَلَّ جلاله ﴿ عَزِيزٌ ﴾ فالعزة تقتضي التمكن والتسلط، وأنه لا أحد يستطيع أن يتسلط على ما يريده ويقضي به عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ فمن امتلك القوة والعزة فلا يقف أمامه شيء، فكل شيء مهزوم وتحت سلطانه وقهره. وبالتالي لا تتمانعوا أيها المؤمنون عن الدفاع عن الدين، فإن ناصركم قوي عزيز، له كامل القوة والعزة وكمالها. فسبحان الله القوي العزيز.

ثم يصف سبحانه وتعالى المؤمنين الموعودين بنصره بأجمل وأكرم الصفات ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ فبدأ البيان الكريم بتقرير حال تمكين الله تعالى لهم في الأرض بالملك والقيادة والريادة ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإنه حال تمكين الله تعالى لهم في الأرض بالملك والقيادة والريادة، وكانت السلطة لهم، فإنهم يؤدون أربع مرتكزات من شعائر الدين وعلاماته، أولها: ﴿ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: أداء شعيرة الصلاة بأركانها وشروطها وحدودها، فدلالة كلمة الإقامة ﴿ أَقَامُواْ ﴾ تتجاوز معنى أداء هيئتها إلى استيفاء كمال إقامتها، فالقيام بالشيء هو استيفاء جميع وكل مطالبه ومكوناته، فيستوفي المصلي شروطها وأركانها وسننها، وهذا من دقائق البيان، فإن من دقائق الآية الكريمة وإعجازها البياني، توصيف أداء الصلاة بلفظ ﴿ أَقَامُواْ ﴾ ولم يقل سبحانه وتعالى: أدَّوا الصلاة. لأن الأداء فعل الشيء، على أي وجه، فقد لا يكون مستوفياً للكمال، فيكون النقص فيه بدرجاته وأوجهه المختلفة. بينما إقامة الصلاة متضمنة لكمال الاستيفاء لأركانها وشروطها وواجباتها وسننها، وخشوعها كما يجب أن تكون. ففي الإقامة بذل كمال الوسع للحصول على كمال الأداء. اللهم وفقنا لإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكمال العبادة، وفعل الخيرات. مما يدل على أهمية الاتصاف بهذه الصفة في أداء الصلاة، لأنها موطن المدح والثناء من الله تعالى عليهم بها. ويفيد تقديم الصلاة على غيرها؛ والاستهلال والابتداء بها في صفات المؤمنين على أهميتها ومنزلتها من بين ما وصِفُوا وأُمِرُوا به.

والمرتكز الثاني: أنهم يؤتون الزكاة ﴿ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ يقُومُون بأداء الزكاة التي عليهم في أنفسهم، وكذلك التي على رعيتهم بحثهم وأخذها منهم، فتُعطَى وتُؤتَى لأهلها المستحقون لها، فلا يتأخرون عن الأداء، ولا يمتنعون عن إخراجها، بل يستوفون المفروض فيها، ومن مواصفاتهم كذلك ﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعروف: مكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. وأما المنكر: عبادة الأوثان، وقطع الأرحام، وقال غيره: المعروف: الحق، لأن العقول تعرف صحته، والمنكر: الباطل، لأن العقول تنكر صحته(١) فأخبر الله تبارك وتعالى بهذا البيان العظيم عن جملة من صفات المؤمنين، التي تعتبر منقبة لهم، وكذلك تبين أهداف هذا الدين وغاياته السامية، بأنهم ﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فمن مظاهر المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف ﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ فيأمرون بكل خير، كالإيمان، وأداء حقوق الله تعالى، وحقوق العباد، وسواء كان هذا فيما بينهم من التناصح، أو ما كان مع غيرهم من الكفار، بالنصح لهم بهذا الدين، ودلالتهم عليه، وترغيبهم فيه، فكلمة ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ كلمة وافية ومستوفية لكل ما يحبه الله تعالى من الأعمال والأقوال، والاعتقاد، بجميع مفرداته ومكوناته من دون استثناء، فلم يخصص منه نوعاً محدداً، بل هو شامل لكل معروف من أوجه الخير والصلة والعفو والعطاء وغيرها، مما يربي ويغرس في المسلم البذل، والإحسان إلى الغير بكل وجه مستطاع، وأن يتحمل غيره، حتى يكون قدوة وأسوة دون مقابل من أحد من البشر. فمن بلاغة البيان أن جاء الأمر بكلمة واحدة، وهي المعروف، لتستوفي جميع المحامد والمحاسن التي قررها الشرع الحكيم.

وكذلك يقومون بأمر آخر وهو: النهي عن المنكر﴿ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ من أجل تحقيق الخير للفرد والمجتمع، والحيلولة دون وقوع الشر. وكلمة المنكر؛ كلمة جامعة ومستوفية لكل ما يبغضه الله تعالى من الأعمال والأقوال والاعتقادات. فيتناهون فيما بينهم عن المعاصي، وعن كل شر، وعن كل ما يناقض المعروف ويعارضه، وسواء كان في الأفعال أو الأقوال أو الاعتقاد، ويمتد نهيهم لغيرهم، بوعظهم ودلالتهم على الخير وتحذيرهم من الشر والكفر والمعاصي. مما يدل على أهمية هذه الشعيرة، وأهمية العمل بها. وفي ذكرها مع ما قبلها من الصفات، ما يدل على أهمية تلك الصفات جميعاً، وأنها تشكل في مجموعها خصائص وصفات المؤمنين الممدوحين بهذا الثناء من الله تعالى. ومن بلاغة البيان أن جاء النهي من خلال كلمة واحدة، وهي المنكر، لتستوفي جميع ما يرفضه الشرع وينهى عنه بدرجاته المختلفة، فاستوفت الكلمتان: المعروف، والمنكر ما يغني عن الكثير من المفردات التي تدخل تحتها.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٤/٣)

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما يحفز المؤمنين على الثبات على تلك الصفات، بأن مصير أمور الخلق راجعة وعائدة إليه جَلَّ جلاله ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ فإن مرجع الأمور عائدة إلى حكمه وتدبيره سبحانه وتعالى. فالأمور كلها السابقة والحادثة والقادمة تصير إليه بلا منازع. فمن قام بما يجب عليه كانت له العاقبة الحميدة. وأما من استخدام السلطة في التجبر والتسلط، وتحكيم هوى النفس، فعقابه عند ربه. فإن مرجع الأمور إليه. مما يفيد التحذير من السير بخلاف شرعه في الحكم، وأن البشارة لمن أقام دينه سبحانه وتعالى فيما مَكَّنَهُ اللهُ تعالى فيه من الأرض. وأنه يجب على من مَكَّنَهُ وأقدره الله تعالى في الأرض أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ثم يخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما يثبته، ويُهَوّن عليه ما يجده من قومه ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ﴾ فإن كان هؤلاء يكذبونك فيما جئتهم به من البينات، فلا تبتئس، فإن لك أسوة فيمن سبقك من المرسلين؛ بتكذيب أقوامهم لهم ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ﴾ فإن كذبوا بك أيها النبي فقد حصل التكذيب من الأقوام السابقة، من قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، فابتدأ البيان الكريم بقوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ فقوم نوح كذبوا نبيهم نوح عليه السلام، وكذلك قوم ﴿وَعَادٞ﴾ الذين كذبوا رسولهم هود، وكذلك قوم ﴿وَثَمُودُ﴾ الذين كذبوا رسولهم صالح. مما يفيد: أن عليك الصبر أيها النبي على من كذبك، ولزوم العبرة والاقتداء بمن سبقك من المرسلين. وكذلك ﴿وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ﴾ فقد كُذِّب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قومه. ومثلهم ﴿وَقَوۡمُ لُوطٖ﴾ فقد كُذِّب لوط عليه السلام من قومه. ﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَ﴾ وأصحاب مدين، الذين كذبوا رسولهم شعيب عليه السلام ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كما كُذِّب رسول الله موسى عليه السلام من فرعون وقومه.

ولم يعاجل سبحانه وتعالى تلك الأمم بالعذاب عقوبة لهم، بل أمهلها تبارك وتعالى، وحَلِم عليهم، ثم أخذ كلا منها بالعذاب الشديد ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فأخرت عنهم العقوبة. فأمهل سبحانه وتعالى أولئك الكافرين، حتى لا يظلم ربك أحداً من خلقه، فلعلهم يرجعون، وهو أعلم بهم من قبل، ولكن جرت سنة الله تعالى في التعامل مع عباده بمقتضى السنن. والإملاء يفيد التأني فيما يستحقون التعجيل به. ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡ﴾ أي: أخذ كل فريق من المكذبين بالعذاب بعد انتهاء زمن الإمهال ومدته. فأخذهم الله تبارك وتعالى بالعذاب

الذي يستحقونه. وأفادت كلمة الأخذ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ كمال التمكن، بما يفيد تمام السلطة والقدرة عليهم أجمعين. ثم يبين عَزَّ وجل قوة أخذه لهم سبحانه وتعالى في صيغة سؤال تقريري، يقرر به ما كان لهم من شدة الأخذ الأليم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فكيف كان إنكاري لهم كفرهم؟ فقد كان في أشد وأبلغ أنواع الإنكار بما نالهم من العذاب الشديد. ألم يكن إنكاري لهم في أشد ما تكون العقوبة؟ فمنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلكهم الله تعالى بالريح العقيم، ومنهم من خسف بهم الأرض، ومنهم من أهلكهم بالغرق، ومنهم من أرسل عليهم عذاب يوم الظلة. فليكن في ذلك عبرة لهؤلاء المكذبين من قومك أيها النبي صلى الله عليه وسلم.

وكلمة ﴿ فَكَيْفَ ﴾ تفيد الاستفهام من أجل التهويل، وتفيد توبيخ الكافرين، ومن ينهج نهجهم أي: فكيف كان إنكاري لهم كفرهم؟ وكيف يكون حالهم عند أخذهم؟ بما يفيد حصول الإهانة والذل لهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فكيف كان إنكاري لهم كفرهم؟ وهو استفهام توقف وتعجب وتدبر وتأمل للموقف بكامله. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حال من يعاند ويكابر. وهو أسلوب يستثير النفس والعقل للتفكر في الحقيقة التي سيكون عليها الْمُخَاطَب والمعني بها من العباد.

ومن دقائق فوائد البيان: ترتيب الإمهال بحرف الفاء ﴿ فَأَمْلَيْتُ ﴾ الذي أفاد ترتيب الإمهال على التكذيب. وقبل ذلك تغيير أسلوب الإخبار ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ فورد الفعل ﴿ وَكُذِّبَ ﴾ من غير ذكر الفاعل بينما فيما كان من قبل تم ذكر الفعل والفاعل ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ وذلك أن قوم موسى لم يكذبوه، وهم بنو إسرائيل. قال القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾: أي كَذَّبَ فرعونُ وقومُه، فأما بنو إسرائيل فما كذبوه، فلهذا لم يعطفه على ما قبله، فيكون: (وقوم موسى)(١) مما يدل على دقة البيان إلى درجة كمال الإعجاز في كلام رب الأنام.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٥٠)

يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

بعد أن أخبر سبحانه وتعالى ببيانه العظيم عن سوء عاقبة الأمم التي كذبت المرسلين، يُجمل القول البياني في كشف مصير الأمم الظالمة، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ فاستهل سبحانه وتعالى الآية بكلمة ﴿ فَكَأَيِّن ﴾ التي تفيد التكثير والتهويل، والتي تعطي دلالة الكثرة، وضخامة عدد القرى التي أهلكها سبحانه وتعالى بسبب ظلمها ﴿ فَكَأَيِّن ﴾ فهي تبين كثرة العدد الذي تناهى في كثرته، فمنهم من ذكرهم الله تعالى كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، ومنهم من لم يذكرهم عَزَّ وجل ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ فكثير من القرى تم إهلاكها بسبب ظلمها ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي: مُكذبة لِرُسلِهَا ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾ فهي خالية من أهلها بسبب هلاكهم. فأصبحت منازلهم متهالكة على ﴿ عُرُوشِهَا ﴾ أي على أسقفها. فقد سقطت سُقُوفُهَا وجدرانها. ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي: ساقطة على سقوفها. لأن العرش هو السقف. فسقطت حيطانها فوق سقوفها، لعدم وجود من يعتني بها من أهلها، فأصبحت خربة قد تساقطت جدرانها على سقوفها التي تهدمت. وهي حقيقة المآل الذي آل إليه أمرها، وشأن أهلها الذين أهلكهم الله تعالى بسبب كفرهم وتكذيبهم للمرسلين، بما يفيد التحذير من أن يكون مصيركم كمصيرهم، وهو إنذار مبين للمكذبين إلى يوم الدين.

ثم يبين تبارك وتعالى المزيد من صورة القرية بعد هلاك أهلها ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ وكم من الآبار المعطلة المهجورة، والمتروكة من أهلها الهالكين، فانتهى شأن وارديها، فلا وارد ولا شارب لها، ولا دِلاء تغور فيها لرفع المياه منها، بل حتى قصورها التي كانت عامرة بأهلها أضحت مهجورة، فلا ساكن بها ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ وكم من قصر مشيد بالبناء المرفوع، قد أصبح مهجوراً خالياً، فلا حياة لأهله فيه. بعد أن كانوا يتنعمون ويتمتعون في بهواته وغرفه وشُرُفَاتِه، فاعتبروا بذلك أيها الناس الجاحدين لربكم ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فلن تنفعكم ملذاتكم ودوركم وقصوركم المشيدة، ومزارعكم وآباركم، فإن عذاب الله تعالى إذا حل بكم؛ جعلكم مثلهم، فاعتبروا بغيركم ممن سبقكم من الأمم الكثيرة التي ظلمت نفسها. فإنها صورة لحقيقة؛ وكأن الْمُخَاطَب ينظر إليها وإلى الهالكين بأدق البيان المعبر عن كشف حقيقتهم؛ وبأتم وأكمل بيان.

ومن دقائق البيان في وصف الأبنية، هو تسميتها: بالقصر، وبالمشيد ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴾ فالقصر: هو المرفوع البنيان، المتعدد الأدوار. والمشيد: الْمُعْتَنَى ببنائه من الجص. قال عكرمة رحمه الله تعالى ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴾ مجصص، والجص بالمدينة يُسمَّى الشِّيد. وعن الضحاك رحمه الله تعالى، يقول: أي: طويل. وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: المشيد: المجصص، وذلك أن الشِّيد في كلام العرب هو الجص بعينه[١] مما يفيد قوة وعلو وسعة بنيان تلك الأقوام لمنازلها، بما أنعم الله تعالى عليهم من الفكر والقدرة والعطاء. فلم يشكروا الله تعالى على ذلك، ويتبعوا المرسلين، بل تمادوا في البطر والأشر، وهنا لم تغن عنهم شيئاً تلك القصور وتنوع النعمة وكثرتها، مما يجب على العاقل ألا يغتر بما عنده، فيذهب به عن الحق.

ويؤكد تبارك وتعالى شناعة المكذبين في تفكيرهم، وعدم الإفادة من عقولهم في إدراك الآيات البينات الواضحات من آثار الهالكين من الأمم السابقة ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ يُعَاتِبُ اللهُ تبارك وتعالى المكذبين، ويوبخهم على عدم اتعاظهم بمن قبلهم، وذلك بالسؤال الاستفهامي، المتضمن للاستنكار والتقريع والتوبيخ، والتعجب من عدم إفادتهم مما يمرون عليه ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أفلم يحصل لهم السير في الأرض فيتأملوا في مصارع المكذبين من الأمم الخالية ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ فتكون لهم قلوب يتأملون ويتدبرون بها مواطن ومواقع الْعِبَر. فحالهم كحال الذي ليس له قلب يعقل به ويسترشد ويَرْشُد به، فيدرك به الْعِبَر المتضمنة في مسيرة من كان قبلهم من المكذبين بالمرسلين، فكأن حالهم هو حال من ليس له قلب يعقل به. فهو إثبات العقل الذي تقوم به الحجة عليهم، وأن في عدم استخدامه تقصير وتجاهل وكبر منهم على لحق، بما يبين أن موانع العقل عن الاتعاظ متحقق ومتجذر فيهم نتيجة الاستكبار. وفي دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ اثبات أن مكان التعقل والتَّفَهُم والفهم هو القلب. فكيف يكون حالهم وقد أعطاهم ربهم نعمة القلوب التي يدركون بها مواقع الاعتبار والاتعاظ، ثم يصدون يتمنعون عن ذلك؟

حتى وإن لم يسيروا في الافاق فقد سار منهم غيرهم، فسمعوا منهم ما شاهدوه وعقلوه. وهو الذي يقرره قوله تعالى ﴿أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا ﴾ فإن لم يسيروا فقد سار غيرهم ونقلوا لهم أخبار الأمم السابقة. وكذلك تستوعب دلالتها: أي: أفلم يسيروا بفكرهم وبما يسمعونه من تناقل أخبار المكذبين الْمُهلَكِين كما يسيرون

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥٩٢-٥٩٤)

بأبدانهم، فإن في ذلك كفاية في التبصر والاعتبار والاستدلال الذي يدفعهم للإيمان، وإلى تصديق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. فإن لم يعقلوا ما شاهدوه، فقد سمعوا بآذانهم من أولئك الذين ساروا في الأرض بالتجارة، وأدركوا أخبار تلك الأقوام المكذبة التي أهلكها الله سبحانه وتعالى، وأخبروهم بما رأوا وأدركوا.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ونُزّلت عقولهم منزلة المعدوم، كما نُزّل سيرهم في الأرض منزلة المعدوم. وأما ذكر الآذان فلأن الآذان آلة السمع. والسائر في الأرض ينظر آثار الأمم، ويسمع أخبار فنائهم، فيستدل من ذلك على ترتب المسببات على أسبابها[١] فإن الحجة قائمة عليهم، مما يفيد أهمية إعمال القلب والسمع والبصر فيما خُلقت له على الأصل، الذي هو عبادة الله تبارك وتعالى. وفي ذكر القلب والسمع دون ذكر البصر، دليل على أن البصر وسيلة ناقلة، والقلب هو منطقة ومكان التعقل. لأن تَبَصُّر القلب يأتي مما تبصره العين وتسمعه الأذن، فأغنى ذكر القلب عن البصر. وخص الأذن بالذكر لأنها وسيلة سماع المنقول من غيرهم. وبالتالي أفلم يحصل من هؤلاء المنكرين المشركين أن ساروا في الأرض، فمروا بديار أقوام قد نالهم العذاب لكفرهم، وعدم استجابتهم وطاعتهم لرسلهم، فيحصل لهم الاعتبار بذلك، فينتهوا عَمَّا هم فيه من التكذيب والتطاول على الحق.

فأهل مكة كانوا أهل تجارة إلى اليمن والشام وغيرها، فيمرون على ديار عاد وثمود. وهذه من الحجج القائمة عليهم، التي ينتفي بها العذر من التأمل والنظر بحواسهم وعقولهم إلى آثار تلك الأقوام المكذبة بالرسل، وأما من لم يسافر ويضرب في الأرض فإن الناظرون والمارون منهم بها ينقلون لهم علم ذلك، فيتناقلون ذلك بين بعضهم البعض. فالمعرفة بالأقوام الهالكة متحصلة عندهم جميعاً، بما رأوا أو سمعوا وأُخْبِرُوا به.

ثم يقرر سبحانه وتعالى أن سبب تعطيل الفهم والإدراك عند الإنسان هو نتيجة تعطيل القلوب عن التبصر. فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ فسبب انطماس التعقل والتأمل والتفكر والاهتداء ليس ناتجاً من عدم وجود البصر، بل من انطماس القلوب التي حوتها الصدور. مما يبين قوة أثر عمى البصيرة. وهو عمى القلب وانطماسه عما تبصره الأبصار، وتسمعه الآذان، فقد نفى سبحانه وتعالى العمى عن العين المبصرة ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ فإنه لم يكن بسبب فقد العين أو عماها، فإن أعينهم كانت مبصرة لما رأت، فشاهدت ما هو أمامها، وما تحمله المشهودات أو المُبْصَرَات من الأحداث والعبر ﴿ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ولكن المشكلة تكمن فيما تحمله الصدور من القلوب. فلم تكن تتمعن في الحقائق التي رأتها العيون، وسمعتها الآذان. فتعامت تلك القلوب بتجاهل ما كان يجب عليها من التعقل والتفكر بالتحليل والاستنتاج، الذي يقود إلى الاعتبار، المفضي إلى الامتثال.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤١٣/٧)

وأكد سبحانه وتعالى أهمية القلب بتعيين مكانه ومركزه ﴿ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ إنها القلوب الموجودة في صدور الناس، وذلك لزيادة تأكيد مصدر التعقل والإدراك والتحليل والاستنتاج بأنه من القلب، مع زيادة تأكيد ما يُثْبِت أن البصر لا يكذب في نقل الصورة والحقيقة التي يراها، بل ينقلها كما هي، ففي ذلك نفي للعلة من أن تكون المانعة من البصر. وفي هذا تزكية لحقيقته، وصدقه فيما يُبْصِر، ونفي التهمة له، من خلال إلصاق العلة بمستحقها، وهي القلوب. مما يفيد أهمية العناية بالقلب، وعدم تسليمه للشهوات والشبهات والتأويلات الباطلة، وللشيطان الرجيم، فينحرف بصاحبه إلى هلكته. وأهمية العناية بما يبصره ويسمعه الإنسان، فَيُورِدُهُ على العقل الذي مكانه القلب، ليتدبره بتجرد. ليحصل على الحقيقة والنتيجة الصحيحة. مما يفيد أن على الإنسان في سائر شؤونه أن يتدبر بقلبه الأشياء على حقيقتها من غير تأويل فاسد، حتى لا يجره الهوى والشهوات والشبهات نحو الفساد الفكري، فإن عليه أن يستقل بعقله عن الملوثات.

قال ابن أبي الدنيا: قال الحكماء: أَحْيِّ قلبك بالمواعظ، ونوره بالفكر، وهذبه بالزهد، وقَوِّهِ باليقين، وذلله بالموت، وقرره بالفناء، وبصره بفجائع الدنيا، وحذره صولت الدهر، وفُحش تقلب الأيام. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم بعد التوبيخ لهم بالسؤال الاستنكاري الذي قامت به الحجة عليهم، يوجه الله تعالى عباده إلى المقارنة بين دار الدنيا ودار الآخرة[١] فإن في هذه الآية الكريمة تحليل لحقيقة الفهم، وتحليل لأدوات الفهم، فإن السمع والبصر وجميع الحواس هي ناقلة للمحسوسات كما هي، دون تغيير أو تعديل، فتقذفها في القلب، وهو الذي يُناط به الفهم، والتحليل والاستنتاج، وجميع العمليات العقلية من التعليل والتفكر والاهتداء والحذر، وأنه منطقة الأوامر بالقبول والرفض، ونحو ذلك. وفي هذا إعجاز تعليمي لما يغفل عنه الإنسان.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن فرط جحودهم، وتماديهم في الاستهزاء، ذلك أنهم يستعجلون عذاب ربهم، فبدلاً من الاتعاظ بما يرون أثناء مسيرهم في الأرض، وبما يسمعون عما حصل لمن قبلهم، فإذا بهم يتمادون في طغيانهم، ويطلبون نزول العذاب على سبيل الاستبعاد المبني على تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى سبيل الاستهزاء ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ فيستعجلونك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بوقوع العقاب، أي: العذاب الدنيوي قبل عذاب الآخرة، وبالشر قبل الخير ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ ﴾ وقد أخبر الله تعالى بسؤالهم ذلك في أكثر من سورة، ومن ذلك قولهم كما جاء في سورة الرعد ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ وكذلك في سورة الأنفال ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٣٨)

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ وهذا من فرط إنكارهم وتكذيبهم أن طلبوا العذاب. بل ومما يثير التعجب من حال مسلكهم هو استعجالهم واستخفافهم بالعذاب، بالرغم من معرفتهم مما أصاب من سبقهم من الأمم. فكان الأولى بهم الاتعاظ. فيقول الله تبارك وتعالى عن عذابه لهم ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ فلن يُخلف الله تعالى ما وعد به المكذبين من الانتقام منهم. وهي بمثابة التهديد والوعيد والجزم لهم به. فإنه منجزه جَلَّ جلاله في الوقت الذي عينه عَزَّ وجل؛ كما وعد به، وليس كما يريدونه هم.

فسيأتيهم ما وُعِدُوا به من العذاب الذي تختلف أيامه عن أيامهم التي يعدونها ويحسبونها ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فإن يوماً واحداً من أيام العذاب عند الله تعالى ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فليس مماثلاً لها، بل يشبه ألف سنة. لأن كلمة ﴿كَأَلْفِ﴾ تفيد التشبيه التقريبي؛ وليس المماثلة تماماً، مما يعني أن اليوم عند الله تعالى أعظم من ألف سنة، سواء في شدة العذاب، أو في طوله الزمني. مما يفيد إن لم يحل العذاب بهم في أيامهم التي يعدونها في الدنيا، فسيكون عنده في الآخرة، في عذاب جهنم وبئس المصير، والذي يومه كألف سنة مما تحسبونه في دنياكم. وفي هذا إعلام من الله تعالى لمن كفر بما سيكون قبل أن يكون. ليفيد التحذير والترهيب والتهديد بما سيقع لهم وقوعاً مؤكداً لا لبس فيه.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وإن أجَّل وأنظر وأملى[١] وقال السعدي رحمه الله تعالى في اختياراته لمعنى ذلك: فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم...فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم لا بد أن يدركهم. ويحتمل أن المراد: أن الله حليم، ولو استعجلوا العذاب، فإن يوماً عنده كألف سنة مما تعدون، فالمدة وإن تطاولتموها واستبطأتم فيها نزول العذاب، فإن الله يمهل الْمُدد الطويلة، ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم[٢] وفي هذا إعلام للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه وللمؤمنين جميعاً؛ حتى لا يستبطئوا عذاب الله تعالى لمن كفر، ولا يستثيرونهم باستعجالهم، فالحكم لله تعالى. فإن كمال قدرته سبحانه وتعالى لا تستلزم الاستعجال إذا أراد الإمهال. فعلى شدة وقوع الظلم من الناس على أنفسهم بالكفر والعناد، واستعجال العقوبة إلا أن الله تعالى يعاملهم بحلمه وبما يريد من التعجيل أو التأجيل. فله الحكم كله. وفي هذا إفهام للكافرين بأن الله تعالى إذا لم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٣٨)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣٢٨)

يستعجل لكم العذاب في الدنيا، فإن وقوعه في الآخرة مضاعف. فهم أمام تحصيل العذاب في الدنيا ثم في الآخرة، أو تأجيله لهم في الآخرة. فهو مؤكد الحصول.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى دلالة حلمه بالإمهال والإملاء للكثير من القرى السابقة، إذ لم يعاجلهم بالعذاب. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ فإن العدد كثير من أهل القرى المكذبين برسلهم، فإنهم كانوا على مثل ما أنتم عليه أيها المكذبون الظالمون، فأمليت وأمهلت وأجلت لهم حيناً، ثم أخذتهم بالعذاب الشديد ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ مؤكداً ومبيناً سبحانه وتعالى أن مصيرهم بعد الهلاك هو العودة والرجوع إليه عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ فيعذبهم عذاب الآخرة. فإن الإملاء راجع لحكمه وسلطانه وإرادته سبحانه وتعالى. مما يفيد التحذير والترهيب ليعدلوا عن كفرهم إلى الاستسلام لله تعالى، والانقياد له عَزَّ وجل؛ ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا التهديد والبيان لهم هو من رحمة الله تعالى، لعلهم يتوبون ويرجعون إلى رشدهم.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ أفادت تعظيم العدد في ذهن الْمُخَاطَب بالتكثير، وتصويره في ذهنه وعلمه تصويراً يؤكد له عظمة إرادة الله تعالى، بتعدد الذين أملى لهم، فلا تحسبن الإملاء هو موافقة لما يعتقدون وتعتقدون أيها الظالمون، بل لحلمه سبحانه وتعالى. وأن أخذه إذا أخذ كان أليماً، شديد المأخذ. فاعتبروا بغيركم قبل أن يصيبكم ما أصابهم من العذاب.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

وبعد أن بين وأوضح سبحانه وتعالى لعباده عاقبة المكذبين، وما حصل لهم من العذاب المهين، وما أعد لهم يوم القيامة من العذاب الشديد، وما يلزم الْمُخَاطَبين من الحذر من عاقبة التكذيب برسوله الأمين؛

صلى الله عليه وسلم. يتوجه الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ قل يا أيها النبي للناس عموماً، ومنهم المستعجلين للعذاب ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ إن مهمتي تنحصر في إنذاركم من عذاب الله تعالى، نذارة واضحة ظاهرة بينة، لا غموض فيها. وموضحاً لكم أمور دينكم. بما يفيد: أنني لا أملك تقديم العذاب، ولا تأخيره. ولست موكلاً ولا مكلفاً بتحقيق الهداية لكم. فإن أطعتم فلكم ثمرة ذلك، وإن امتنعتم وكذبتم فعليكم وزر ذلك.

وقد ورد الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بلفظة ﴿ قُلْ ﴾ أي: قل القول الذي أخاطبك به أيها النبي، صلى الله عليه وسلم. وفي هذا رفعة لشأن النبي عليه الصلاة والسلام، بأن القول منسوب إلى الله تبارك وتعالى، فيقول بما قاله ربه له جَلَّ جلاله. ثم تلاها القول لهم بالنداء ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فنادي فيهم، بما يفيد عموم الإخبار للجميع، بل وأصَّلَهُ بالجنس البشري ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فإنه نداء لكافة الناس، في عهده، وبعد عهده، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فهو نداء يتجدد بتجدد الناس. وحصر الله تعالى مهمة النبي صلى الله عليه وسلم في الإنذار بأداة الحصر ﴿إِنَّمَآ ﴾ لتفيد التقييد، بأن لا تطلبوا مني غير ما كُلِّفتُ به من الإنذار الواضح الذي لا لبس فيه، والبيان لدينكم الذي أُرسِلتُ به إليكم. وأن ما أُنذركم به واضح مبين ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وهذا توضيح وبيان: بأن النبي صلى الله عليه وسلم واضح فيما يخبركم وينذركم به، وأن مضمون إنذاره واضح لكم؛ لا غموض فيه. ولم تُذكر البشارة لمن أطاع، لأنها ظاهرة بضد الإنذار، فالإنذار يحمل الترهيب، ويعني التحذير، وتقابله البشارة التي تحمل ما يَسر، وما يَفْرَح به الْمُبَشَّر. ولذلك تلتها البشارة مباشرة ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

فبعد بيان مهمة النبي صلى الله عليه وسلم، يأتي بيان ما يحمله من البشارة لمن أطاع، فبدأ البيان الكريم بما يبشر به من أطاعه، مع بيان منهج الطاعة ومضمونها الذي يُوجِب استحقاق البشارة ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فإن المتصفون بالتصديق المحقق للإيمان، وجمعوا معه العمل بما أمر الله تعالى به ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أي: محو وزوال ذنوب ما سلف من أعمالهم، وتطهيرهم منها، وسترها، وكذلك لهم الرزق الكريم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة، لأن نعيمها لا ينقطع أبداً لمن دخلها. قال

محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهو الجنة[١] فتضمن دين الله تعالى جميع الاعتقادات القلبية، وهي الإيمان ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وكذلك الأعمال السلوكية ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهي المتعلقة بالجوارح، كالعبادات، والمعاملات، وعموم الأوامر والنواهي في الكتاب والسنة. والأعمال الصالحة هي العلامة والبرهان للإيمان الاعتقادي. فدين الله تعالى يقوم على ركيزتين، الإيمان الذي مكانه القلب، والأعمال الصالحة التي مصدرها الجوارح.

ثم يذكر سبحانه وتعالى الذين يستحقون الإنذار من عذاب الله تعالى وغضبه ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فإن الذين سعوا بالكفر في آيات الله تعالى، بإنكارهم وتكذيبهم البراهين والحجج، ويصدون الناس عنها بالمغالبة والمنازعة لآياتنا؛ من خلال محاولة إبطالها، بالتعدي والتحدي لها، فإنهم أصحاب الجحيم. وقد أفادت دلالة ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ معنى المبالغة في المغالبة، بالمضادة، من تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعاندته بذلك، وصرف الناس عن الحق. وهي تشمل كذلك ما ذكره الزجاج رحمه الله تعالى: ظانين أنهم يعجزوننا، لأنهم ظنوا أنهم لا يُبْعَثُون، وأنه لا جنة ولا نار. وقيل في التفسير ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ معاندين. وقيل أنهم: كانوا يُعَجِّزُون مَن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم، ويثبطونهم عنه[٢] بل بلغ بهم الأمر إلى السعي في ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ بما يفيد الجدية والعمل الحثيث، من خلال بذل أقصى ما يمكن من الجهد في إبطال آيات الله تعالى.

فهؤلاء لهم عند الله تعالى مصاحبة الجحيم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فمن اتصف بذلك فإنهم مصاحبون للنار، فلا تنفك عنهم، ولا ينفكون عنها، فمصاحبتهم لها مصاحبة ملازمة، فلا ينفكون عنها. فلهم بذلك من الله تعالى أشد العذاب، بملاصقتهم ومصاحبتهم لجهنم وبئس المصير. وقد سمى الله تبارك وتعالى تلك النار باسم ﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴾ لأنها تتأجج وتحتدم من قوتها. فنسأل الله تعالى العافية، والنجاة، ودخول الجنة بسلام.

فقد ورد وصف فعلهم بصفتين عظيمتين من قوة التحدي والتعاظم على آيات الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم. فالصفة الأولى: ﴿ سَعَوْا۟ ﴾ والسعي يفيد بذل أقصى الجهد مع المسارعة في مضادة دين الله تعالى. والصفة الثانية: ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ فالمعاجزين مبالغة لكلمة معجزين، بما يفيد قوة المناهضة لدين الله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٣٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٠٢)

عَزَّ وجل، بالإنكار والتثبيط لغيرهم. وهي تشمل كذلك: أنهم ظانين ومعتقدين ومقدرين في عقولهم أنهم يسابقون مراد الله تعالى فيما يريد، فيعجزون الله في إرادته. ظانين أنهم يعجزون الله تعالى، لأنهم ظنوا أنهم لا يُبْعَثُون، وأنه لا جنة ولا نار، مما يدل على عمق الكفر المتجذر في قلوبهم، حتى أنهم يجحدون ما يرون من آيات الحق، ويكذبون ما يسمعون من دلائل وبراهين حجج الله تعالى.

ثم يُفَصِّلُ ويخبر الله سبحانه وتعالى عن مكائد الشيطان، وحفظ الله تعالى لرسوله ونبيه ولسائر الأنبياء والمرسلين من مكائد الشيطان العظيمة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ يتوجه الخطاب في هذه الآية الكريمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ ﴾ فيخبر اللهُ عَزَّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بمكايد الشيطان على من كان قبله من الأنبياء والمرسلين. بل عَيَّن جميع الأنبياء والمرسلين بدون استثناء، والرسول هو كل من أُنزِل عليه كتاب من ربه وأُمِر بتبليغ ما نُبِئ وبُعث به، وأما النبي فهو من أوحي إليه ولم يُنَزَّل عليه كتاب. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: دليل بيّن على تغاير الرسول والنبي. وقال: أن الرسول من الأنبياء: مَنْ جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه. والنبي من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله[1] ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ فجميع الأنبياء والمرسلين من دون استثناء ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ أي: إذا قرأ. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن معناها، أي: تلا. قاله الأكثرون[2] فإذا قرأ ﴿ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ ألقى بوسوسته ما ليس من أصل القراءة المنزلة. قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: قرأ قراءته التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم ﴿ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ أي: في قراءته، من طرقه ومكائده ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي يزيله ويُذهبه ويبطله، لأن النسخ هو ابطال الشيء بشيء يتعقبه، ليتبين أنه ليس من آياته ﴿ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي: يتقنها ويحررها، ويحفظها، فتبقى

---

(1) الزمخشري، الكشاف (٣/١٦٢-١٦٣)

(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٠٣)

خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان[١] فيخلصها مما ليس منها، ويتقنها بجودة تحريرها، ويحفظها ويثبتها، فتبقى خالصة من مخالطة ما ألقاه الشيطان.

وفي هذا الإحكام للآيات التي هي آيات الكتاب، دليل تأكيد على أن المقصود بدلالة كلمة ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أنها القراءة والتلاوة للكتاب ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ فإحكام الله تعالى آيات الكتاب دليل على أن المقصود به القرآن الكريم. ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ أي: آيات كتابه الكريم. كما أن في هذا إخبار منه سبحانه وتعالى بجدية نشاط الشيطان ومحاولته الإفساد، ولكن ﴿يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ فيمنع عنها كل محاولة، وكل أثر، فيضبطها كما هي: مما يفيد أن الله تعالى حافظ لكتابه من كل تغيير وتبديل، وأنه حَفِظَ لسان وقلب نبيه صلى الله عليه وسلم من مكائد الشيطان. وفي هذا تزكية لكتابه سبحانه وتعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولجميع من سبقه من الأنبياء والمرسلين. وفي هذا الإلقاء من الشيطان حكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، واختبار لإيمان عباده.

ثم يختم الله تعالى هذه الآية الكريمة بما يدل ويُثْبِتُ ويُبيّن عِزَّتَه التي لا يمكن أن يطالها أحد من خلقه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فإن الله تعالى عليم بكل شيء، فلا يخفى عليه ما يلقي الشيطان ولا غيره. وأنه قادر على منع ذلك، ولكنه حكيم في تدبيره وتقديره، وما يقضي به. بما يفيد أن الله تعالى قادر على منع الشيطان من ذلك، وأن إلقاء الشيطان ليس من عدم علم الله تعالى به، بل يعلم ذلك، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما كان ذلك منه حكمة، لأنه حكيم فيما يقضيه، ويأذن به عَزَّ وجل. ويفيد ذلك في حياة المؤمن أن الشيطان يترصد به كما ترصد بالأنبياء والمرسلين، وبالتالي فإنه يوسوس له، ويدفعه للشر بتزيينه له، وإلقاء الشبهات، وإثارة الشهوات وتزيينها، ويحاول منع المؤمن عن الخير، وعن كل ما ينفعه، فيرهبه من فعل الخير، بما يوجب على المؤمن التعوذ بالله تعالى من شره، والحذر منه، وعدم مطاوعته، ويدرك بأن وقوع الوسوسة تقع لكل أحد من الناس، وواجب الجميع الحذر والالتجاء إلى الله تعالى، ومع ذلك فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون؛ كما قال تعالى في سورة النحل ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣٣٠)

ثم يبين تبارك وتعالى الحكمة مما يُلْقي الشيطانُ في قراءة الأنبياء والمرسلين ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فالهدف من عدم منع الشيطان عن مراده هو لاختبار وتمحيص طائفتين من الناس ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فإلقاء الشيطان هو فساد وشر، ليختبر الله تعالى به طائفتين من الناس، حتى تقوم الحجة عليهم. فالفئة الأولى: هم الذين في قلوبهم مرض ﴿ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ وهم الذين لم تصح قلوبهم باليقين من الإيمان، فهي مريضة بعلل الشك، وعدم اليقين، فهي مُعَرَّضَة للفتنة والشبهات، لضعف إيمانهم، وعدم تمامه، من المنافقين وأهل الشك والريبة. وأما الفئة الثانية: فهم ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهي الغليظة قلوبهم التي لا يؤثر فيها التذكير والمواعظ، والترغيب والترهيب، لشدة قسوتها. فيكون ما يلقي الشيطان سبب لتماديهم في الضلال، وإصرارهم على العصيان. فيجعلون ما يلقي الشيطان حجة لهم على باطلهم، لا عليهم، فيجادلون به، ويشاقون الله والمرسلين، ومنهم خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يصفهم اللهُ سبحانه وتعالى بما يكشف حقيقتهم ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فقد سماهم تبارك وتعالى بالظالمين، الذين ظلموا أنفسهم، وظلموا الحق بافترائهم، ومعاندتهم وتكذيبهم لما نزل من الحق، ومشاقتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. فهم في خلاف ومعاندة للحق. وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك بحرف التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من الحقيقة الواصفة لهم. فإن هؤلاء الفئتين أو الصنفين ﴿ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي: مشاقة ومعاندة لله تعالى، بل إنها مُوغِلَةٌ في شقاقها ومحاربتها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك بمحاربة الحق بالطرق المخالفة له، والبعيدة عن الحقيقة والصواب. فكلمة ﴿ بَعِيدٍ ﴾ أوضحت عمق المشاقة والمخالفة التي أبعدتهم عن الحق والصواب؛ بعداً شاسعاً، فساروا وأمعنوا في المخالفة إلى درجة أنهم دخلوا في بعد عميق من المخالفة، ومن محاربة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. فيكون هذا الفعل من الشيطان سبب قد جعله الله تعالى تمحيصاً، فيكشف به أهل الشك والريبة، والقاسية قلوبهم من المنافقين والمشركين وغيرهم من الكفرة.

ويمتد أثر الحكمة مما يلقيه الشيطان في قراءته صلى الله عليه وسلم إلى إظهار ثبات المؤمنين على ما جاءهم من الحق ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ

قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فمن أهداف ومرامي ما يلقيه الشيطان، ثم محوه، ثم إحكام الله تعالى لآياته، بتخليصها من الباطل، وإثبات كمال نصها كما أنزلت، ما يتحقق به صدق إيمان المؤمنين من أصحاب العلم بهذا النسخ، وهذا الإحكام لآياته عَزَّ وجل ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فيصدق أولئك المؤمنون بما منحهم الله تعالى من العلم الذي عرفوا به الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والرشد من الغي. والحق الثابت الذي يُحْكِمُهُ اللهُ تعالى، والباطل العارض الذي ينسخه الله تعالى ويُبطله. فيدركون أن الذي أحكمه الله تعالى هو الحق من الربِّ سبحانه وتعالى، وأن الذي نسخه هو الباطل. فيحصل لهم أمرين متتابعين: الأول: ﴿ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ ﴾ وهو التصديق الكامل، الذي ازدادوا به إيماناً على إيمانهم. والأمر الثاني هو: ﴿ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ﴾ أي: تخضع وتلين قلوبهم لذلك. وهو وجل وخشوع وخضوع قلوبهم لذلك الحق، فيستقر في قلوبهم، وتسكن وتنقاد نفوسهم للحق الثابت من الله تبارك وتعالى.

ثم يخبر الله عَزَّ وجل بثواب من اطمأن قلبه بالإيمان، ولم يزغ بشك، أو ريبة، فإنه يهديهم إلى طريق الحق، ويوفقهم إليه ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى سيهدي ويوفق الذين آمنوا به وبكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى طريق الحق الواضح، الذي يوصلهم إلى مرضات الله تعالى وجناته. مما يفيد أهمية الثبات، وأهمية العلم، وأهمية اليقين، فإنه الطريق إلى هداية الله تعالى وتوفيقه في الدنيا وفي الآخرة.

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ﴾

يخبر اللهُ سبحانه وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن حالة الكفار في شكهم وقسوة قلوبه لم تتغير بعد، وذلك لإعراضهم وعنادهم، فإنهم لم يتأثروا بما وُعِظُوا به ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ فلا يزال الكفار في شكهم وريبهم مما جئتهم به أيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وأنهم مستمرون في ذلك غير منفكين ومتراجعين عنه، وأن هذه الحال التي هم عليها من الامتناع والتَّمَنُّع باقية فيهم حتى حصول أحد أمرين: الأول: هو ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فهم في غيهم مستمرون حتى تقوم القيامة عليهم فجأة. والأمر الثاني هو: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ أو قد يأتيهم عذاب يستأصلهم الله تعالى فيه، وعند ذلك الوقت يدركون حقيقة فسقهم، حين لا ينتفعون بما أصابهم من العذاب، لأنه عقيم عليهم، قد امتنع منهم تحصيل التوبة. لأن العقيم الممتنع منه الشيء، كالعقيم من الولد، الذي امتنع منه الإنجاب.

ثم يخبر الله تعالى عن عزته ذلك اليوم، الذي هو يوم القيامة، بانحصار الملك له وحده لا شريك له، وتجرد كل إنسان عما كان عنده في الدنيا ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فيوم القيامة يكون ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ بما يعطي دلالة الانفراد، بأن ينفرد كل أحد من عباده بنفسه، فليس له مما كان يملكه شيئاً، لا مال، ولا جاه، ولا مكانة، ولا رتبة، ولا ولد، ولا قصور، ولا شيء، فإن ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ فينفرد الله تعالى بكمال الملك، وتجريد عباده مما أعطاهم ومكنهم وملَّكَهُم. وفي هذا اليوم يفصل الله تعالى بين عباده ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يفصل بينهم بحكمه وقضائه العادل، فتكون هناك فئتان: الأولى: فئة المؤمنين ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ وهم الذين جمعوا بين الإيمان والطاعة لله تعالى، فعملوا بما جاءهم من ربهم تبارك وتعالى، فإنهم يدخلون ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ في جنات الله تعالى التي هي كمال النعيم المقيم، من الحدائق والأنهار، وما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وأما الفئة الأخرى، فهي فئة الذين كفروا ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فالذين كفروا بالله وبِرُسُلِه، وأنكروا آيات الله تعالى الدالة والهادية إلى الحق ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فإن لهؤلاء الكفرة عذاب متصف من

شدته بإهانته لهم، وإذلالهم وتحقيرهم، لقوته وشدة ألمه، وبلوغه للأفئدة، فكان جزاؤهم من جنس كفرهم، فكما استهانوا بالله تعالى وبِرُسُلِهِ أهانهم وأذلهم الله تعالى بالعذاب الشديد.

ثم يخص الله تبارك وتعالى من المؤمنين الفئة التي هاجرت في سبيله، ثم ماتوا على ذلك شهداء في سبيله عَزَّ وجل، أو كان موتوهم على فرشهم ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يبشر الله سبحانه وتعالى من ترك بلاده ومراتعه هرباً بدينه ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهجرتهم كانت خالصة في سبيل دين الله تعالى، ثم حصل لهم أحد أمرين: الأول: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ فقتلوا من غيرهم، بأن استشهدوا في سبيله سبحانه وتعالى ﴿أَوۡ مَاتُواْ﴾ أي: حصل لهم الموت المعتاد على فرشهم ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾ ليعطينهم ربهم فضلاً منه ورحمة ذلك الرزق الحسن، الذي هو الجنة الجامعة لما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى ببيان أنه خير الرازقين. وبالتالي لن يكون هناك رزق أفضل مما يرزق به العباد، سواء في الدنيا أو في الآخرة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فرزق الله تعالى هو خير الأرزاق؛ لكونه من خير الرازقين، فلا رزق أفضل من رزقه سبحانه وتعالى في الدنيا وفي الآخرة. مما يعلم المسلم أن ما يرزقه الله تعالى للعبد في دنياه هو الأفضل والأخير له، فليرض به، مهما كان مقداره في عينه. فهو الأخير والأفضل والأنسب له، لأن الله تعالى يعلم ما يصلح به حال العبد، وما يطغيه، ويخرجه عن الطاعة من الأرزاق. وفي الآخرة درجات متفاوتة من جنات النعيم.

ومن جميل البيان ودقته أن أكد الله سبحانه وتعالى أنه خير الرازقين بحرف التوكيد ﴿وَإِنَّ﴾ ولام التوكيد ﴿لَهُوَ﴾ وبالمفاضلة القاطعة بأنه ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فليس هناك خير من رزق الله تعالى لعباده في الدنيا والآخرة. اللهم إنا نسألك خير الأرزاق في الدنيا، وخير الأرزاق في الآخرة، وأن تعطينا أعلى جنة الفردوس بفضل منك ورحمتك.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى جزيل عطائه ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ ليدخلنهم الله سبحانه وتعالى المدخل الأوفق والأطيب لنفوسهم، والذي يحبونه؛ وهو الجنة، فمن كرمه ورحمته ومحبته لعباده الصالحين أنه سبحانه وتعالى يكرمهم بما يحبون، إكراماً لا مثيل له. موجهاً لعباده بكمال صفاته، بأنه يعلم ما تجشموه من المشاق في سبيله، والنوايا والمقاصد الحسنة الصالحة، فلا يخفى عليه شيء من

شأنكم في سبيله ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل عليم بمن خرج في سبيله، ومن يخرج لغير ذلك، فلا تختلط عليه النوايا القلبية، مهما أضمرها العباد في قلوبهم ولم يصرحوا بها. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ أي: عليم بما تجشموه وتحملوه من عناء ومشاق هجرتهم من ديارهم وأموالهم وأهليهم، ومع كمال علمه فإنه سبحانه وتعالى ﴿ حَلِيمٌ ﴾ فلا يعاجل عباده بما يستحقون من العقاب، أو العذاب، بل يحلم عليهم، ليتمكنوا من التوبة والاستغفار. إلا من عاند واستكبر.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن عدله بين عباده، بما يبشر به المؤمنين الذين يقع عليهم العدوان، بأن ينصرهم على من ظلمهم ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ يرجع البيان من الله تعالى باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى ما سبق من إدخال المهاجرين الجنة، فإن الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين، بأن من قُتل شهيداً أو مات؛ فإن مأواه الجنة، وربط ذلك عَزَّ وجل بمشروعية العقوبة وتقنينها بالعدل ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ أي: وأن من أُعتُدِي عليه ظلماً، فله أن يعاقب ويرد بمثله، فيجازي الظالم بمثل ظلمه. فالعقوبة تكون تابعة لحصول الظلم. ومقدرة بمقداره. فإن من كمال عدله عَزَّ وجل في الاقتصاص أن جعل العقوبة مماثلة لمستوي ومقدار الظلم. ثم إن حصلت بعد المظلمة الأولى معاودة من الباغي الظالم فإن الله تعالى سيمكن المؤمن من الظالم وينصره عليه ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ لينصرن الله تعالى المظلوم على الباغي المتعدي. وفي هذا إثبات الانتصار من المظلوم على الباغي، وبالتالي لن يفوت أبداً هذا الظالم، لأن المتوعد هو الله تبارك وتعالى، القوي العزيز، الذي لا يفوت منه أحد أبداً مهما كانت حيلته وقوته، فإن الله تعالى له بالمرصاد.

ومن دقائق البيان أن وردت الألفاظ باسم المفرد. ليكون هذا في حق الفرد، فكيف إذا كان البغي على جماعة المؤمنين، فإن الأمر متحقق فيهم حتماً كما هو متحقق في شأن الفرد. مما يفيد أن على المؤمن حين يأخذ حقه يكون بالعدل، ومن غير تجاوز وتعدي، فلا يقابل الظالم بالظلم، بل يقابله بالاقتصاص العدل، فإن

الله تعالى لا يحب المعتدين. كما يدل هذا على أخلاق الإسلام، وتربيته لأتباعه بمقتضى العدل، حتى مع العدو الظالم، فيكون في حق إخوانه المسلمين أكثر وجوباً. ثم إن الله تعالى لم يحدد وسيلة واحدة في شأن وأمر النصر للمظلوم، لأن لله تعالى ما لا يعلمه ولا يدركه العبد من سبل ووسائل النصر. فقد ينصر المظلوم بما يُلقيه في قلب الظالم من الرعب، وقد يمكنه منه تمكيناً لا مفر منه، وقد يسلط عليه من يجعله يشعر بظلمه فيرد المظلمة لأصحابها، وقد يسلط عليه من يردعه. فوسائل الله تعالى وأنواع جنوده لا حصر لها، ولا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى. مما يربي في المؤمن اليقين بأن نصره ليس على الله تعالى بعزيز.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن مغفرته للمؤمنين بتأكيد صفة العفو والمغفرة التي هي من أسمائه وصفاته العظيمة، ورحمته الخاصة بمن أطاعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي كثير العفو والمغفرة للمؤمنين، فيما يقع منهم من الذنوب، جراء ما يجدون من غيرهم من الأذى، فيكفر عنهم ذنوبهم بالعفو عنهم، ومغفرتها. لأن ما يصيب المؤمن حتى الشوكة يُشاكه إلا ويغفر الله تعالى له بها من ذنوبه، كما ورد في الحديث. (ما من مصيبة تُصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه. حتى الشوكة يُشَكُهَا)(١)

ثم يبين سبحانه وتعالى كمال قدرته؛ وقوة نصره لمن بُغي عليه، بما يراه الْمُخَاطَب من تَحَكُّمَهُ عَزَّ وجل في الليل والنهار، فيولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل؛ على وتيرة دقيقة في أوقاتها. والتي توضح وتبين قوته وقدرته، وعظيم سلطانه عَزَّ في علاه سبحانه وتعالى، فإن الذي يتحكم في هذا الشأن العظيم، بهذه العظمة وهذه القدرة، فإنه قادر على تحقيق ما وعد به ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ فيلفت سبحانه وتعالى الْمُخَاطَب إلى إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، ليعتبر بما يراه ويعايشه في حياته هذا الإنسان ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ فذلك الذي نفعله من نصرة المظلوم على الظالم هو متحقق وكائن، لأن قدرتنا تتجاوز ذلك الشأن، فإن من مظاهر قدرتنا هو أن ﴿ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أي: يُدخل جزءاً من الليل في النهار، وجزءاً من النهار في الليل بدقة متناهية. والولوج، هو: الإدخال، ومنه: ولج فلان منزله أي دخله. أي يُدخل ما نَقَص من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا. ويُدخل ما نَقَص من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار. حتى يكون الليل خمس عشر ساعة، والنهار تسع ساعات، ويُدخل النهار في الليل، حتى يكون النهار

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٦٤١)

خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.[١] فالذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل بهذه العظمة الرهيبة؛ فإنه لا يعجزه نصرة المظلوم على الظالم، فما الظالم والمظلوم في قدرة الله تعالى إلا أن يقول كلمة: كن فيكون بها الظالم هالكاً، والمظلوم منتصراً.

فبأسلوب الالتفات إلى قدرة الخالق ما يبين بها قوته وقهره وعزته جَلَّ جلاله. مما يفيد في جانب التعليم والوعظ والإرشاد أهمية بيان ما في الكون من عظمة التدبير، وعظمة السلطان لله عَزَّ وجل، والتغيير، والترهيب والترغيب، فإن فيها مواعظ. وهنا يظهر تناسق التداخل بين الليل والنهار، وبين النهار والليل بصورة عجيبة، تبين قوة قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، وقوة قهره، وقدرته على التغيير بما يشاء، فلا يتقدم منها شيء، ولا يتأخر منه شيء البتة. بما يدل على عظيم مُلْك الله تعالى، وعظيم قدرته وسلطانه، وجمال وكمال تصرفه، فينزع مما أعطاه النهار من ساعات، ليعطيه الليل بحكمه وقدرته عَزَّ وجل. وينزع ما أعطاه الليل من ساعات، فيعطيه النهار بحكمته وعظيم قدرته جَلَّ جلاله، فتراها في عملية دؤوبة دقيقة؛ ومتدرجة، وبصورة مذهلة لمن تأملها، بل ويُدخل الليل على النهار عند مجيئه بتدرج عظيم عجيب، وكذلك يدخل النهار عند مجيئه على الليل بتدرج عظيم عجيب، وفي نسق لا تنازع بينهما فيه. لتتجلى ملكية الله تعالى، وعظيم تدبيره وقدرته وتصرفه في ملكه. فانتبهوا أيها العباد من الظلم، واطمئن أيها المظلوم من عودة حقك لك بقدرة الله تعالى وحكمه وانصافه. مما يفيد الحذر من الظلم، واليقين بأن الله تعالى سينصر المظلوم فرداً كان، أو جماعة، أو أمة من الأمم.

ومن تناسق هذه الدلالة مع ما قبلها من النصر والتمكين للمظلوم من الظالم، وتناسق تداول ساعات الليل والنهار، بأن الله تعالى بقدرته يُدخل الليل في النهار، ويُدخل النهار في الليل، ويُمَكِّن المظلوم من الظالم كما يُمَكَّن الليل من النهار، ويُمَكَّن النهار من الليل. لتكون شواهد عظيمة، وفي تناسق بياني بديع، يعجز عنه المخلوق. فإنها آيات دالة على عظيم قدرته وكمال عدله وسلطانه عَزَّ وجل.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ما سبق بيانه لقدرته عَزَّ وجل ببيان علمه الشامل الكامل لكل ما يحدث في الكون ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ فإن ربكم تبارك وتعالى يسمع كل شيء، فلا يفوته صوت، ولا كثرة الأصوات، ولا تداخلها، ولا انخفاضها، بل يسمعها جميعاً، لكماله وكمال قدرته عَزَّ وجل، فإن من صفاته أنه ﴿بَصِيرٌ﴾ فلا يفوته شيء من فعل أو حركة؛ مهما كانت خفتها وتخفيها، ومهما كان حالها، فلا يعزب ولا يغيب عنه تبارك وتعالى مثقال ذرة؛ ولا أصغر ولا أدق منها. ليتأكد بذلك في علم الْمُخَاطَب أنه جَلّ جلاله يسمع ويبصر ما يكون من الظالم، وما يكون من المظلوم، وبالتالي لا يحتاج عَزَّ وجل إلى بيان وشكوى من العباد، فكل شيء معلوم لديه سبحانه وتعالى. مما يُدخِل الاطمئنان على نفوس المؤمنين، ويُدخل المهابة في لقلوب والجوارح عند تصرفاتها وحركاتها. ولذلك يظهر من المتقين في تصرفاتهم ما تبطنه قلوبهم من خوفهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٠٤-٣٠٥)

ورجائهم في ربهم تبارك وتعالى. فإن تركوا وأمهلوا مَنْ ظلمهم فإنه لعلمهم بأن الله تعالى مطلع عليهم، وناصر المظلوم على الظالم.

ومن فوائد البيان الرباني ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى، بقوله: والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلب أحوال الزمان، فقد يصير المغلوب غالباً، ويصير ذلك الغالب مغلوباً. على ما فيه من التنبيه على تمام القدرة، وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام، إدماج تشبيه الكفر بالليل، والإسلام بالنهار(١) وكذلك من عظيم الفوائد البيانية أن صفة ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ وردت بصيغة المبالغة، التي تفيد كثرة ما يسمع ويبصر في وقت واحد، فلا يفوته صوت، ولا يفوته متحرك. بل وأكد ذلك بحرف التوكيد ﴿وَأَنَّ﴾ الذي يؤكد به ما قبلها من الوصف للسمع والبصر في حق الله تعالى.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى على ما سبق من البيان بأن هذا البلاغ هو لإظهار عظمته؛ وكمال قدرته، وصفاته العظيمة الجليلة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ يُرْجِعُ اللهُ تبارك وتعالى باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم ذكره من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، ليؤكد ويبين لكم أيها العباد ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فكل ما سبق من أدلة قدرته عَزَّ وجل تبين وتؤكد لكم بأن الله سبحانه وتعالى هو الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ هو الإله الحق، الذي ليس من دونه إله أبداً، ليبطل بذلك جميع أنواع الشرك، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وأن جميع ما يُعبد من دونه عَزَّ وجل هو الباطل بعينه، فجميع المعبودات لا تستطيع أن تصنع مثل ما صنع سبحانه وتعالى: من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، فليس لِمَا يُعبد من دون الله تعالى أي قدرة من ذلك. مما يدل على بطلانها.

ثم يؤكد جَلَّ جلاله علو شأنه ورفعته على خلقه أجمعين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فإن الله ربكم سبحانه وتعالى هو ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ الذي لا يعلو عليه شيء من خلقه، وهو كذلك ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا كبير يكبره، فكل شيء هو دونه، مخلوق له، مقهور بسلطانه، بل جاء القصر بذلك،

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٣٠/٧)

إذ قال عَزَّ وجل ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ﴾ التي تفيد هو لا غيره ﴿ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ ليس هناك أعلى منه أبداً، فهو عليٌ في مكانته وقدسيته وشرفه وملكه، وقهره، وسلطانه، وهو ذو العلو على كل شيء، وكل ما دونه ملكه، ومتذلل ومنقاد له عَزَّ وجل، وأنه أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع ومتصاغر، وذليل له عَزَّ وجل. وهو الكبير في سلطانه على الإطلاق، فهو عظيم الشأن، وأعظم شيء سبحانه وتعالى.

وبهذا يكون قد كشف الله سبحانه وتعالى بطلان ما يُعبد من دونه بالحجج والبراهين؛ التي تُظهر ألوهيته وربوبيته بما خلق من الكون، وبطلان كل معبود غيره عَزَّ وجل، بعجزها العجز التام والكامل. وبالتالي كيف تعبدون العاجز، وتتركون القادر، وكيف تجعلون العاجز شريك في ملك القادر القاهر. فهو استدلال بواقع المشاهدة، وواقع المحسوسات، مما يبين أن منهج الإسلام مبني في الإقناع على الحقائق، وليس على التوقعات والأوهام، فدين الله تعالى واضح المعالم، والمنهج، وقوي في استدلاله وحجته وبراهينه.

في نسق عجيب ابتدأت هذه الآية الكريمة بمثل ما بدأت به الآيتين السابقتين لها. فمن جميل ودقائق البيان وبراعته، وحلاوة السياق، أن بدأ مطلع الآيات الثلاث المتتاليات باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في نسق عجيب. وقد بدأت هذه الآية الكريمة بمثل ما بدأت به الآيتان السابقتان لها، ثم أكد سبحانه وتعالى بأنه الحق بحرف التأكيد ﴿ بِأَنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده، بأن الله جَلَّ جلاله هو الحق. ثم تكرر في الجملة التي تليها إمعاناً في التأكيد ﴿ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ ثم يتكرر التأكيد مرة ثالثة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ تأكيداً على أنه سبحانه وتعالى صاحب العظمة والعلو، وأن كل شيء متصاغر له ولعظمته وهيبته، فهو أكبر من كل شيء، فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ
٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا
بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ
ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦ ﴾

يتوجه الخطاب إلى جميع الْمُخَاطَبين بلفت الانتباه؛ واستثارة العباد إلى عظيم مخلوقاته سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ

مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أورد الله تعالى هذا التوجيه الكريم، تبياناً وإيضاحاً أن الذي أنزل المطر من السحاب المسخر بين السماء والأرض، ثم اخضرار الأرض بعد جفافها، دليل على الإحياء بعد الإماتة، وتأكيد للبعث والنشور، ودليل على لطفه وعنايته ورحمته بعباده، وأنه على كل شيء قدير، ومنها الإماتة ثم الإحياء، بما يؤكد حقيقة البعث والنشور.

فبدأ التوجيه الكريم بسؤال تقريري لما يشاهده المخاطبون من عباده ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ لشد الذهن والحس والانتباه إلى ما يرون مما سيذكره الله سبحانه تعالى عن إحياء الأرض بالزرع بعد موتها بالجفاف. ولبيان عظمته التي لا يمكن أن يتغافل عنها الرائي، أو يتعذر من رؤيتها. وجملة ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومتقرر عند الْمُخَاطَب، فَيُلْجِئُهُ إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يشاهده بعينه وبصيرته. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية إلى أن يُفنِي اللهُ تعالى الأرض ومن عليها بقيام الساعة، ففي إفراد الْمُخَاطَب ما يفيد التعميم، بأنه خطاب لكل أحد من الناس بعينه، فيخاطبه رَبُّهُ تبارك وتعالى بذاته، فإن الرؤية حاصلة لكل بصير بنفسه. وهذه دقة في الخطاب والتوجيه، وكذلك في صيغة البيان، وقوة أثره.

وورد الخطاب مفرداً ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ وإن كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، لتعظيم شأنه وشأن ما يشاهدونه، ولكن سياقه يفيد العموم، دون تحديد وتعيين مُخَاطَباً بعينه، ليشمل جميع عباده من غير تخصيص. لأن في إفراده ما يفيد التعميم، بأنه لكل أحد من الناس، بأن الله تعالى خاطبه بذاته، ليقيم عليه الحجة بهذا المثل المضروب منه عَزَّ وجل، وهذه دقة بيانية في الخطاب، وفيما تضمنه من مقاصد التوجيه، وفي بلاغة بيانه، وقوة صياغته، وأثره على النفس البشرية. فهو سؤال يشد الانتباه، ويوقظ الذهن، ويستدعي التفكير، ويستثير التأمل، وإثارة الترقب والمتابعة لعظيم ما بعده من التوجيه والبيان الرباني الكريم. وتأتي جملة ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ بمعنى ألم يلفت انتباهك هذه المشاهد العظيمة للكون. وكذلك هو سؤال تقريري، لخبر من الله تبارك وتعالى، يُقرر فيه واقع ما يشاهده المخاطب من آيات الله تعالى العظيمة الدالة على الإحياء بعد الإماتة.

وفي هذا من الفوائد: التعجب من الحال والأمر الذي يحمل الإعراض عن الحق، الذي يشاهد العباد أدلته في الكون، بل ويتعايشون معه، والتي تكشف لهم ما لم يتأملوه ويستفيدوا من دلالته، بما يوجب ويُحقق لهم استبصار وفهم الحق بأصوله. فتفيد ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ التعجب من حال من لا يتدبر ويتفكر، ويستدل بالمخلوق على الخالق، وعلى الحركة والتغيير على قوة المدبر عَزَّ في علاه. وهو أسلوب توقف وتأمل، يستثير ويستدعي

الذهن للتأمل والتفكر فيما يجب أن يتفكروا فيه، وفي دلالاته المؤكدة لتوحيد الله عَزَّ وجل، ليستعيد به الإنسان صحيح الرؤية في الأمر. فيقول الله تعالى عنهم، عجباً من هؤلاء الذين لا يتدبرون ما يرون من حركة الخلق.

والبيان بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هو سؤال استفهام، لكنه تقريري، بسبب ما يدركه المخاطبون بعقولهم التي وهبها الله تعالى لهم. وهو سؤال يشد الذهن والانتباه والحس إلى المشاهدة في الكون لتدبير الله تعالى المبينة لحقيقة ما يشاهدونه من الحجج التي لا يمكن أن يعارضها عاقل، وبالتالي أعطى وأفاد السؤال دلالة التقرير، ولكنه بصيغة الاستفهام عَمَّا هو مشاهد بالعين، ومحسوس بكافة الحواس، فَيُلْجِئُهُ إلى الإقرار بالحقيقة والبرهان والدليل المضروب له بالمثل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أثبتت الآية الكريمة وقررت بأن نزول المطر من الله تعالى، فهو الذي ينزل المطر من السماء، بما يثبت ويبين أن الله تعالى هو الخالق الرازق، وأنه هو الذي يجب أن لا يُعبد غيره. كما أن في الآية لفت الانتباه إلى العلو، بتعيين مكان النزول بأنه من السماء ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وفي هذا البيان شد الانتباه إلى الارتفاع، وإلى السحاب الذي يتحرك في ذلك العلو العظيم، ليتدبر الْمُخَاطَب مقدار ارتفاع السحاب وعلوه في السماء، وسيره ورحيله وتنقله من مكان إلى مكان، فلا يستطيع أحد من خلقه أن يتحكم في قدره ومقداره، ولا أن يمنعه أحد عن أحد، بل يمتد بالتفكير والتفكر إلى مقدار قلته وكثرته؛ فينزله بالقدر الذي يحتاجه العباد، وتستوعبه الأرض، فلا إجحاف فيه لتموت الأرض، ولا غزارة ليهلك الخلق به. فمن الذي قدر هذه المقاييس؟ فأنزله بمقدار ما تستوعبه الأرض، ثم يسوقه من بلد إلى بلد، ومن أرض إلى أرض، وينزل المطر على هيئة قطرات، لتجري به أودية وشعاب كالأنهر؛ أو أشد جريان منها، حتى جاء تسميته على حقيقته بالماء ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ومن بديع البيان أن نسب الله تعالى إنزال المطر إليه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ ﴾ فكلمة ﴿أَنزَلَ ﴾ تُنبه الْمُخَاطَب أن الذي أنزل هذا المطر هو الله تعالى، بقدرته ومشيئته، ولينتفي بهذا الحصر للإنزال جميع المعتقدات الفاسدة في نزول المطر.

ثم لفت الانتباه إلى الحقيقة الأخرى، وهي العلاقة بين المطر وبين اخضرار الأرض وتغير لونها وشكلها بما ينبت عليها من الزرع ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أي: فاخضرت الأرض وتغير لونها إلى الاخضرار بعد الاصفرار. فتغير من اصفرار الجفاف إلى لون الحياة المخضرة بالزروع، من الأشجار والنبات الأخضر. فقد جعل الله تعالى الماء سببا لإنبات الزرع؛ الذي تخضر به الأرض، فتتزين بهذا اللون البهيج، المبهج للنفوس.

ومن حكمته وقدرته ورحمته سبحانه وتعالى أن أخرج أنواعاً وأشكالاً مختلفة من الزروع بهذا الماء، فاخضرت به الأرض، واكتست بذلك التنوع العجيب. فإن الذي أحدث هذا التغير العام هو الله تعالى جَلَّ جلاله بلطفه بكم أيها الناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ إن ربكم متصف باللطف وعظيم العلم، مما يدل على عظيم لطفه ببديع صنعه، وكريم عطائه وسعته، وسعة علمه، وعظيم رحمته بالعباد. وصفة اللطف ﴿لَطِيفٌ﴾ تعني: الذي يلطف بعباده من حيث لا يحتسبون، ويهيئ ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، فإن ربكم اللطيف الذي يُوصِل إليكم مرادكم وحاجاتكم برفق ورحمة، ومن ذلك قولهم: لَطَفَ اللهُ بك.

وصفة ﴿خَبِيرٌ﴾ تؤكد وتبين أنه سبحانه وتعالى عليم في كيفية ترتيب الأسباب، وتعليل بعضها ببعض، سواء في عموم أحداث الكون، أو في ترتيب السياق الذي يُقنع المتلقي ببيانه وبمضمونه، فَيُعَلِّمُه تعليماً راسخاً، وواضحاً بأدلته التي لا تقبل الشك والريبة. وخبير بكيفية معالجة شؤون عباده، معالجتها معالجة حكيمة في معاشهم وفي تعليمهم، وهدايتهم وتوفيقهم للحق المبين. كما نبين دلالتها بأن الله تعالى بأعمال عباده خبير، فلا تخفى عليه من أعمالهم خافية. والخبير من أسماء الله الحسنى، وهو من صيغ المبالغة التي تعطي معنى العالم بما كان وما يكون وما سيكون، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي هذا تحذير لمن كفر، وبشارة لمن آمن، بأن الله تعالى عليم بأعمال عباده، وسيوفي كل أحد بما يستحق.

ومن عظيم السياق التدرج في البيان، فبدأ تبارك وتعالى بالماء الذي هو أصل وسبب الاخضرار بما ينبت على الأرض من الزروع والأشجار والنبات ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ثم ذكر تعالى إخراج الزرع بصفته التي يكون عليها من الاخضرار، وما تتغير به الأرض من الاصفرار إلى الاخضرار ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ ثم بعد ذكر النعمة وأصلها، وسبب تكونها أرشد إلى عظيم صفاته؛ من اللطف بالعباد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بما يفيد: كيف تعبدون غير اللطيف بكم. الذي تجلت صفات لطفه ورحمته فيما يمدكم به من الزرع، بهذه الكيفية العجيبة، التي تدل على عظمة الخالق. فهذا السياق المتدرج يدل على قوة البيان ودقته، وعمق أسلوبه الجاذب، والمثير للتفكر والتأمل، والشكر والثناء على الله تعالى بما هو أهله، مع قوة لفت الانتباه، بل ويعلم المتدبر لبيانه كيف يقتبس ويبني منه الطرائق البديعة للتعلم والتعليم، وكيف يمكن أن تكون منهجية البناء التعليمي والعلمي في تدرجه وتسلسل بيانه.

ثم يتدرج البيان الكريم بقوة الاستدلال إلى ربوبيته وألوهيته ببيان عظيم عن ملكه، وعظيم غناه جَلَّ جلاله. فقال عَزَّ وجل ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فإن لربكم الذي أنزل لكم الماء من السماء، فاخضرت به الأرض لطفاً وعناية بكم، فإن له جميع ما هو موجود في

السماوات والأرض ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ فانتقل البيان في تدرج من الجزء إلى الكل، ومن المخصوص إلى العموم ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ فينبه عباده سبحانه وتعالى بأن السماوات وما فيهن، والأرض وما عليها وفيها؛ له وحده لا شريك له. وليس لأحد شراكة فيها أبداً. وبالتالي كيف تشركون معه غيره. ثم يبين لهم عَزَّ وجل بعد هذا الاستدلال غناه عن غيره، وأنه المستوجب للشكر والحمد ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ فمن له ملك السماوات والأرض فهو غني عن كل أحد، وبالتالي كل شيء مفتقر إليه. وأنه الْمُغْنِي لعباده، المستوجب الحمد والشكر على إنعامه وكريم فضله وسخاء عطائه. بما يفيد: فكيف تعبدون العاجز، الفقير إلى ربه، وتتركون الغني، الذي يغني غيره بما يشاء، ويفقر من يشاء بحكمته. بل إن كلمة ﴿ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ تفيد المبالغة في صفة المحمود، فهو المحمود كثيراً، لكثرة محامده التي فاضت على عباده وعلى جميع خلقه. وصفة ﴿ ٱلۡغَنِيُّ ﴾ تدل على أنه من كمال غناه، فهو الذي يغني غيره. فيحصل الحمد منهم له، فيكون محموداً من جميع خلقه تبارك وتعالى على الأصل، سواء شكر العبد وحمد ربه، أو لم يشكر ويحمد، فإن فضله سابق عليه وثابت، ومتعديه إلى غيره.

ومن بديع السياق أن قدم تبارك وتعالى التملك ﴿ لَّهُۥ ﴾ ثم المملوك ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ للدلالة على قصر الملك له لا لغيره، فليس له شراكة ولا شريك في ملكه أبداً. ثم أكد أنه الغني الحميد بحرف التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ الذي يؤكد حقيقة ما بعدها من البيان. وكذلك من دقة البيان وقوته أن قصر ذلك على ذاته العظيمة، إمعاناً وتأكيداً في الإثبات بالحصر أنه له لا لغيره ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ فورد الحصر بحرف التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ وبلام الابتداء ﴿ لَهُوَ ﴾ فحصر السياق بأسلوبه البياني العظيم صفة ﴿ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ عليه وحده لا شريك له جَلَّ جلاله، فيصبح كل غني من خلقه فقير لربه، وأنه هو الذي أغناه وسد حاجته عن غيره.

وبعد أن بين وأوضح ربنا تبارك وتعالى أن له ملك السموات والأرض، وقبلها بيانه آية نعمة إنزال المطر، وإنبات الأرض، يلفت سبحانه وتعالى إنعامه على عباده بنعمة تسخير ما في الأرض لعباده ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ يتوسع تعليم الله تعالى لعباده بما يبين لهم عظيم قدرته، وعظيم

فضله عليهم بسؤال تقريري في إثبات الحقيقة، فَيُقَرِّر به معرفتهم وإدراكهم لذلك، وفي نفس الوقت هو سؤال استنكار لهم على مخالفتهم لما تقرر في قلوبهم من أن الله تعالى سخر لهم ما في الأرض ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ألم تشاهد أيها الإنسان ببصرك وبصيرتك أن جميع ما في الأرض مُطَوّعٌ لك ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والتسخير هو التذليل والتسهيل والتيسير، بما يفيد أنه لولا هذا التسخير لكانت الصعوبة والعجز عن تحقيق الانتفاع. فأنتم تنعمون بنعمة التسخير من ربكم الذي خلقكم، إذ تمشون على الأرض، وتتسلقون الجبال، وتحرثون الأرض، فَتُنبت لكم ما تحتاجونه، وهداكم إلى حفر الأرض، واستخراج الماء والمعادن منها. وسخر لكم الأشجار بما تثمره من الثمار. فتخرج لك أيها الإنسان من كل الثمرات، وسخر لكم الحيوان أكلاً وركوباً، وحملاً لما تحتاجون حمله ونقله، وغير ذلك مما لا يحصيه الإنسان من أنواع التسخير وأشكاله وأنواعه ومقداره.

وبدأت الآية الكريمة بشد الانتباه عند الْمُخَاطَب بجملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التي تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومحسوس ومتقرر عند الْمُخَاطَب من التسخير العظيم. فَيُلْجِئُهُ بذلك إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يعايشه كل لحظة في حياته من أوجه التسخير، ويشاهده بعينه وبصيرته، ويحسه بجميع حواسه، ويستخدمه في جميع شؤونه. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل جميع عباده منذ نزول هذه الآية العظيمة إلى أن يُفنِي اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليها بقيام الساعة.

ثم يذكر سبحانه نوعاً من مفردات التسخير التي لا تُعد ولا تحصى، وهي نعمة تسخير السفن التي تعبر البحار، وتنقل الناس والمتاع ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ فمن أوجه التسخير أن السفن التي تحملكم وتحمل أمتعتكم وتجارتكم، حتى أنها لا تسير في البحر السير الخفيف فقط، بل ﴿تَجْرِى﴾ في البحر، بما يحقق لكم سرعة الانتقال، وتخفيف المشقة، فلولا هذا التسخير مع نعمة الجريان في البحر لأصبح التنقل عليكم شاقاً، وربما انعدم عليكم تحقيق الكثير من مصالحكم، ولما استطعتم عليه إلا بشق الأنفس. وهذا الجريان ليس بأمركم ومشيئتكم الكونية، بل ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بما يفيد أن جميع التسخير كان بأمره جَلَّ في علاه، فذلل لكم البحر، وجعل لكم هبوب الرياح سبباً لجريان السفن، وهداكم لصناعة الفلك بأمره وهديه وتوفيقه. مما يوجب عليكم التفكر والتأمل الذي يتحقق به توحيد ربكم وطاعته، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر سبحانه وتعالى نعمة أخرى، يتحقق بها الأمن ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ فمن جليل نعمه أن السماء على عظمتها وعلوها فهي ثابتة منذ أن خلق السماوات والأرض إلى أن يزيلها سبحانه وتعالى يوم ميعاد زوالها. فقد خلقها عَزَّ وجل لازمة الإمساك بإذنه وتقديره، بحيث لو أذن لها لسقطت على الأرض، وهلك الخلق. فبقدرته ورحمته وعنايته ولطفه جعلها ممسكة عن السقوط. فلو شاء سبحانه وتعالى لأذن للسماء أن تقع وتسقط على الأرض، أو شيئاً وأجزاء منها؛ فيهلك من في الأرض جميعاً. ونسب سبحانه وتعالى الإمساك له من وجهين: الوجه الأول: بكلمة فعل الإمساك ﴿وَيُمْسِكُ﴾ والوجه الثاني: بأمره لها، بما يأذن به ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ وفي هذا تأكيد للبيان والإعلام الْمُعَظِّم لهذا الشأن، فإنه أمر عظيم لو تأمله الإنسان.

ثم يذكر لطفه ورحمته بعباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فمع ظلمهم، وكثرة المعاصي إلا أنه سبحانه وتعالى بجميع الناس ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فذكر سبحانه وتعالى جميع جنس الإنسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ليدل على أنه سبحانه وتعالى يعامل عموم الناس بمقتضى رأفته ورحمته بهم: العاصي والمطيع، والمؤمن والكافر. وليست معاملتهم بما يكون منهم. فلو عاملهم بما يكون منهم لأهلكهم بمعاصيهم وظلمهم. ولكن يعاملهم بمقتضى رأفته ورحمته تبارك وتعالى. وقد وردت رأفته بصيغة المبالغة ﴿لَرَءُوفٌ﴾ التي تفيد أنها فاضت على عباده بكثرتها وعمومها، وكذلك رحمته عَزَّ وجل ﴿رَّحِيمٌ﴾ فالمبالغة تفيد امتداد الوصف إلى أقصى دلالاته وغاياته. والتي من مظاهرها إنزال المطر، وإنبات الزرع، وتسخير ما في الأرض، وتسخير الفلك في البحر، وإمساك السماء أن تقع على الأرض، فلم يسقطها عليهم، مع كثرة الشرك وعموم الكفر، وكثرة المعاصي التي تستوجب سقوطها، ولكنه عَزَّ وجل متصف بالرأفة والرحمة الكثيرة.

فالرؤوف يعني: الكثير العطف والإحسان، والمخفف عن عباده ما لا يطيقون، فَيُسَخِّر لهم ما يرفع عنهم المشقة، ولا يكلفهم بالتكاليف الشاقة، وهي: غزارة الرحمة. وأما الرحيم فهي من صيغ المبالغة، التي تفيد كثرة الرحمة، أي: أن الله تعالى ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء. ومن ذلك الإشفاق على الإنسان، وسواء من حيث عدم تكليفه بما يشق عليه من العبادات، أو من رفع المشقة عنهم بتسخير مخلوقاته لهم، من الأنعام وغيرها. والرأفة تحمل دلالة الإشفاق مع الرحمة، والرأفة أخص من الرحمة، والرحمة أعم من الرأفة، فتشمل جميع الخلائق. وقدم الأخص على الأعم للعناية والاهتمام، وتبيانا وتأكيداً لها.

وصفة الرؤف تحمل معاني مليئة بالدلالات العظيمة، منها ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فالرؤف بمعنى الرحيم، والرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. والرأفة أخص، والرحمة أعم.[١] فكيف وقد اجتمعت مع بعضها البعض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن رحمته ورأفته بالناس أن أرسل الرُسُل وأنزل الكتب، وبسط لهم الأرض، ورزقهم من كل خير، ولم يعجل لهم عقوبة الذنوب، لعلهم يرجعون ولعلهم يرشدون، ولعلهم يتوبون، ولولا ذلك لما بقي عليها أحد من كثرة المعاصي والتقصير في الطاعة، وقلة الذكر والشكر له تبارك وتعالى، وهذا عام للناس، فكيف والأمر متعلق بالمؤمنين، إنه رؤف رحيم بهم. وبالتالي كيف يُعصى وهو بالناس رؤف رحيم؟ وكيف يُشرك به وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُشكر وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُذكر ويُمَجَّد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يتذلل له العبد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُدعى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُرجى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُطمع فيه وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُستحى منه وهو الرؤف الرحيم؟ فلو رحم عبدٌ عبداً لاستحى منه، فكيف بمن رحمته هي السبب في تراحم العباد بينهم. فإنها صفات تستوجب الشكر لله تعالى من العبد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي، قد تَحْلُبُ ثديها تسقي .أي تُرضع. إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحُه؟ فقال (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[٢] مما يستدعي محبة الله تعالى، ومجاهدة النفس في طاعته عَزَّ وجل.

ثم يختم الله تبارك وتعالى تعدد هذه النعم بأعظمها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ يعطف الله تبارك على ما سبق من جليل الإنعام على عباده نعمة الإيجاد، ثم نعمة القدرة المليئة بالهيبة، وهي نعمة الموت، ثم أعظم النعم للمؤمنين، وهي الإحياء الذي ليس بعده شقاء لمن آمن وعمل الصالحات، والعذاب المقيم الدائم الذي لا ينقطع عمن كفر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ الذي أوجدكم. أي: الإيجاد بعد أن كانوا عدماً، فأخرجهم من بطون أمهاتهم، بعد تكامل خلقهم بقدرته عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيميتكم بقدرته بعد انقضاء آجالكم في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ثم يحيكم يوم البعث والنشور، ليجازي كل محسن بإحسانه، وكل مسيء بإساءته.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٤٠)

(٢) البخاري (٤/٩١) برقم (٥٩٩٩)

ثم يبين تبارك وتعالى بعد هذه المشاهد المتتالية والمرتبة بحرف الترتيب ﴿ثُمَّ﴾ أن جنس هذا الإنسان بعد كل هذا البيان الذي يدركه وقد أدركه هذا المخلوق، فإنه كفور لما أنعم الله تعالى به عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جحود، فينكر ذلك الإنعام، من تسخير الله تعالى له ما في الأرض، وإنباتها بماء المطر، ونعمة إيجاده، وطريقة إيجاده، وما يحصل من الموت أمامه لغيره، ومع ذلك فهو كفور، جاحد لما أنعم الله تعالى به عليه. بل كثير الجحود، الذي بالغ فيه مبالغة كبيرة. لأن كلمة ﴿لَكَفُورٌ﴾ من صيغ المبالغة، التي تفيد: امتداد مسلك الإنكار عند هذا الإنسان إلى أقصى دلالاته وغاياته. إلا من هداه الله تعالى ووفقه. مما يدل على عظيم نعمة الهداية، وأنها أعظم نعمة على الإنسان، بأن أرسل الله تعالى لجنس هذا الإنسان الأنبياء والرسل، وأنزل الكتب، وأظهر لهم الدلائل والحجج في أنفسهم، وفي الكون كله ليعبدوه ويشكروه، فيجازيهم في الآخرة بالنعيم المقيم، ولكن أكثرهم عاص لربه، غير مطيع.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ
هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ
ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا
لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ
مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

بعد أن عرض سبحانه وتعالى إنعامه على عباده، وفيض رحمته ولطفه بهم، وتوضيح دلائل قدرته، ينتقل بهم البيان إلى إظهار وبيان حكمته وقدرته عَزَّ وجل التشريعية. ثم يوجه نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى منهج التعامل مع من ينازعه من المشركين وغيرهم فيما أمره الله تعالى به، وشرعه له. فيقول تبارك وتعالى ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ لكل أمة بعث الله تعالى فيهم رسولاً جعل لهم تشريعاً خاصاً بهم. فلا تترك لهم مجالاً ليجادلوك ويخاصمونك فيما شرعه تبارك وتعالى لك في دينه الذي هو خاتمة الشرائع. فبدأ البيان الكريم

بتقرير حكمته التي اقتضت أن لكل أمة شريعتها ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ فلكل أمة بعث الله تعالى فيها رسولاً؛ جعل لهم شريعة وكتاباً، متضمناً لتفصيل معاملاتهم، وعباداتهم، وفق كيفية معينة، وفي معابد محددة، وأوقات معينة، وجعل سبحانه وتعالى للمسلمين في شريعة النبي محمد صلى الله عليه وسلم شريعة معينة في المعاملات والعبادات، ومناسك الحج، ومناسك الذبح، وامكنة العبادة، وهي المساجد، للصلاة فيها، وغير ذلك من التشريع. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لكل جماعة جعلنا مألفاً يألفونه، ومكاناً يعتادونه لعبادتي فيه، وقضاء فرائضي، وعملاً يلزمونه[١] فلكل أمة خصوصيتها في شريعتها ونسكها. وهم مأمورون بالعمل بمقتضاه ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون وفق ما شرعه الله تعالى لهم.

وهذا من حكمته سبحانه وتعالى. إذ جعل لكل أهل دين أنزله عَزَّ وجل منسكاً، ومنها الذبح، يذبحونه ابتغاء وجهه الكريم جَلَّ جلاله، وتقرباً له عَزَّ في علاه. والأصل في المنسك هو ذبح القرابين. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن المنسك: هو من نسك ينسك، إذا ذبح القربان، والذبيحة نسيكة، وجمعها نُسك[٢] فالمنسك هو موضع أداء الطاعة، سواء كان ذبحاً أو غيره. ولكنه في سياق هذه الآية أشمل من ذلك. كما ذكر ابن جرير آنفاً. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى عن المنسك في هذه الآية: ولا وجه للتخصيص، ولا اعتبار بخصوص السبب[٣]وبالتالي فإن دلالة المنسك في هذه الآية الكريمة هي الشريعة عموماً. مما يفيد عند التفسير وعند الفهم أهمية إدراك دلالة المعنى للكلمة وفق السياق ومقاصده. وألا تُفرد عن النص، باعتبار أنه أحد مكوناته، فلا تُعزل عن جملة السياق، فإن عموم النص يخصص أحياناً بعض مفردات كلماته.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى منهجية معالجة منازعة المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم، بما يعترضون به على ما جاءهم به من الحق. بسبب أنهم يُسندون الأمر لعقولهم الفاسدة، فيقول تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ فلا تترك لهم مجالاً ليجادلوك ويخاصمونك فيما شرعه الله تبارك وتعالى لك في دينه الذي هو خاتمة الشرائع. فيتخذون مجادلتك وسيلة للتعطيل والصرف عن الهدف. لأن الأصل أن لكل أمة منسكهم التعبدي الخاص بهم، وفق ما جاءهم به رسولهم الذي أُرسِل إليهم. وبالتالي لا تلتفت إلى منازعاتهم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٥/١٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٥٢/٣)

(٣) المرجع السابق (٤٦٧/٣)

ومن دقائق البيان أن الله تعالى لم يقل لنبيه صلى الله عليه وسلم: لا تنازعهم في الأمر، لأن الأمر بعدم منازعتهم قد يفيد الموافقة لهم، أو المهادنة، ولكن قطع هذا الشأن نهائياً بقوله عَزَّ وجل ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ ليدل ويفيد: فلا تترك لهم مجالاً ينازعونك في دينك، وذلك بترك جدالهم، وعدم العناية والاهتمام والانشغال به، وتجاوزه إلى الاستمرار في دعوتك بما أُمرت به، ولذلك ألصق أمر النهي مباشرة بأمر الدعوة، ليفيد إهمال مجادلتهم، والاستمرار في دعوتك ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فاستمر أنت من اتبعك من المؤمنين في مسيركم ومسيرتكم وطريقكم دون أن تلتفت إلى منازعاتهم ومجادلاتهم الباطلة، فلا تهتم بها فتشغلكم عن الهدف. داعياً لهم ولغيرهم إلى الطريق الموصل إلى رضا ربك، فقد خصص وعين سبحانه وتعالى الوظيفة والمنهجية العملية التي يقوم بها صلى الله عليه وسلم، بأن يستمر في دعوته لهم ولغيرهم، دون أن يلتفت إلى منازعاتهم، وإشغالهم له صلى الله عليه وسلم بمقترحاتهم، وبما يرونه ويريدونه. مما يعطي المسلم عموماً، والداعية إلى دين الله تعالى ألا يلتفت لمن يشغله عن مهمته الأصلية، فيما لا طائل منه. كما يفيد ذلك في جانب الإدارة والقيادة بأن لا تترك للمثبطين والمعاندين مجالاً للمنازعة، فينازعونك ويشغلونك ويؤخرونك عن تحقيق أهدافك.

ثم يبين تبارك وتعالى مميزات شريعته التي أنزلت على نبيه صلى الله عليه وسلم، بما يفيد التزكية لها من كل وجه، فيقول تبارك وتعالى ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فإنك أيها النبي على المنهج القويم الذي أنزله ربك خاتمة لجميع الشرائع؛ ومهيمناً عليها. فقرر جَلَّ في علاه أن الْهُدى الذي جاء به رسوله وعبده محمد صلى الله عليه وسلم هو دين مستقيمٌ لا عوج فيه ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وبالتالي عل كل أمة أدركت خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم وجب عليها اتباعه، لأن شريعته ومنسك دينه ناسخة للشرائع السابقة.

ومن دقائق تفاصيل السياق الكريم هو تدرج بيانه الذي بدأ أولاً بتقرير اختلاف الشرائع في منسكها ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ ليفيد عدم المقارنة بين كل شريعة وشريعة فيما يتعلق بتفاصيل العبادات، وأمكنتها وكيفيتها، وبهذا التقرير اقطعوا عملية التفكير أيها الْمُخَاطَبُون في شأن الاختلاف والتوافق، فإن لله تعالى حكمته فيما يشرعه لكل أمة، وهو أعرف وأدرى بهم. ثم يتدرج إلى معالجة من يقارن شريعة الله تعالى التي أنزلت على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بغيرها من الشرائع ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ فطالما أن لكل أمة شريعتها، فبالتالي لا يشغلونك بالردود والمجادلة عن الوظيفة الأصلية، فلا ينازعونك في أمر دينك. ولما أنه لا يمكن منع المنازعين، فإن العلاج يكون بتركهم، حتى يتركوا منازعتهم لك. ففي

ترك من ينازع ويخالف معالجة للأمر، فالمنهج هو ترك المنازعة إذا لم يجد تجاوباً ممن ينازعه. لأن مقصدهم من المنازعة هو التطاول، والظفر بتحصيل مرادهم السيئ والمثبط. وهذه معالجة ربانية في كيفية التصدي لمن كان منهجه الجدال، من أجل إشغال المحسن والداعي والْمُجِد في الخير عما هو فيه. فإن ضرر الإشغال يتعدى إلى إضاعة الوقت وهدره، ومن ثَمَّ تحصيل التقصير، بسبب الانشغال بغير المهم عن المهم. ولكن المعالجة هي بترك الجاحد والمجادل فيما لا رجاء فيه من جدال؛ حتى يتحصل بذلك الترك تفادي إضاعة الوقت بإذن الله تعالى وتوفيقه. وكذلك يتجنب به التقصير في الأداء. فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فدين الله تعالى واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار.

ثم تدرج البيان من ترك المزعج والْمُشْغِل إلى العمل، وأداء الرسالة والمهمة ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ واستمر في دعوتك، ولا تنشغل بالمنازعين. ثم يتدرج البيان الحكيم من رب العالمين وبحكمة بالغة إلى توكيد ما هو عليه النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فالذي أنت فيه من التشريع، والذي أنت فيه من مسلك الدعوة، وعدم الالتفات إليهم فيه؛ هو الهدى الذي شأنه الاستقامة، فلا اعوجاج فيه أبداً. ففي اثبات الاستقامة قطع لأي شيء من الاعوجاج والمخالفة للاستقامة. وقصر منهج الله تعالى على الاستقامة التي انتفت منها أحوال الاعوجاج وصوره. ومن روائع الآية الكريمة التتابع المتدرج في البيان، والذي يأخذ المتلقي له نحو الإدراك المترابط في تتابع المضمون، بما يفضي إلى قناعته بدلائل الآيات الكريمة. فأولاً ذكرت الآية العظيمة ما يتعلق باختلاف نسك كل أمة بُعِث فيها رسولاً من الله تعالى، ثم بيان أن هذا النسك الذي أمرتم به يا أيها الناس هو نوع مما أمرنا به من سبقكم، ثم يتدرج السياق كما تم بيانه في نسق رائع في تحقيق غايته ومراده لمن تأمله وتدبره.

ثم يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمنهجية المعالجة إن استمر المنازعون له في دينه ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فإن استمروا في جدالهم ولم يتوقفوا ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فقل لهم إن الله عَزَّ وجل أعلم بمقاصدكم، وبنياتكم، وبتدبيركم، وما تكيدون من الكيد، وبالتالي هو الذي يتولى شأني وشأنكم بما يقتضي به أمره عَزَّ وجل من الحكم. وفي هذا تهديد لهم، وبيان أن ترك مجادلتكم هو من باب تفويض الأمر لمن بعثني نبياً ورسولاً سبحانه وتعالى. فإن ربنا عَزَّ وجل أكثر وأدق علما بأفعالكم وأعمالكم. وفي ذلك بيان للنبي صلى الله عليه وسلم بمنهجية التعامل مع المكذبين المعاندين المجادلين، وهو منهج لكل من يجد من يعانده في الحق، بأن يسلك المسلك الرباني الذي بينه ربنا جَلَّ جلاله لنبيه ورسوله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان وفوائده: اختصار الإجابة التي تغني عن فتح الحوار الجدلي ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ وكلمة ﴿أَعۡلَمُ ﴾ تفيد المبالغة في العلم والاطلاع، بأنه يرى ويسمع كل شيء منكم، فليس علمه مقصور على أقوالكم وجدالكم الظاهرة فقط، بل حتى أفعالكم وتدبيركم، وما تسرون به، وما تتكتمون عليه، فإنه يعلمها علماً دقيقاً سبحانه وتعالى، بما يفيد أنه لا يخفى عليه منكم شيء أبداً، فاحذروا مغبة طغيانكم.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بالقول الفصل في شأن الحكم في مخالفتهم لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إليه من الحق ﴿ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ فإن الله تعالى يحكم بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومه يوم القيامة في شأن مخالفتكم له، واختلافكم عليه. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: بين المسلمين والكافرين[1] بما يفيد لن تُترَكوا من غير محاسبة، لتعلموا حينها أنكم تماديتم في الباطل، بمحاربتكم الحق الذي جاءكم به نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم. مما يفيد إثبات يوم القيامة، وأنه موعدكم للفصل والحساب والجزاء. وفي هذا تهديد وترهيب ووعيد لهم. مع بيان حلم الله تعالى على العباد، فيؤخرهم إلى يوم الفصل. كما يفيد هذا الأسلوب أهمية الحلم، وأهمية الحكمة في معالجة الأمور، ولا يلزم أن تكون الحلول فورية القضاء.

ثم يقرر لهم سبحانه وتعالى مضمون ما سبق بيانه من العدل في القضاء يوم القيامة، وما أفاده من الوعيد والتهديد، وموجهاً الخطاب لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بصيغة السؤال التقريري ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ فيقرر جَلَّ جلاله ثلاثة أمور: الأول كمال علمه ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ والثاني: حصر كل شيء وتقييده بالتسجيل له في كتاب اللوح المحفوظ .﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ﴾ والثالث: إن ذلك الرصد والتسجيل لحركة الكون والعباد سهل ويسير على ربكم سبحانه وتعالى، وليس فيه امتناع أو صعوبة كما هو حال المخلوق ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ بما يفيد: فلا تقيسوا قدرة الخالق على قدرة المخلوق، فلا تقيسوا قدرة الله تعالى على قدراتكم.

فيقرر جَلَّ في علاه عظيم علمه سبحانه وتعالى، وعظمة تدبيره، بأنه يعلم جميع ما في السماء والأرض، وبالتالي يعلم ما يكون من المشركين من المعاداة للحق الذي جاء به رسولهم الذي يعرفون أمانته وكريم أخلاقه،

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٥٣/٣)

وأن كل ما يحدث في الكون مسجل في كتاب، وهو أمر سهل ويسير على الله تعالى بأن يسجل جميع ما يحدث في ملكوته، ومنها ما يحدث من أعمال الكافرين التي سيجازيهم عليها. وقد بدأت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ التي تفيد أنك قد علمت، وهو سؤال يقرر العلم لما بعده عن علم الله تعالى لجميع ما في الكون من دقيق الأحداث، وكثيرها وكبيرها، فلا يخفى على الله تعالى من ذلك شيء. وهو سؤال يستثير الذهن نحو فائدة هذا العلم الذي يُطَمْئِن المؤمن، ويُرعب العاصي.

ثم تأكيد البيان لعلم الله تعالى بحرف التوكيد ﴿أَنَّ﴾ والتي تؤكد ما بعدها من البيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقد تأكد لديكم أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، بكمال علمه وتمامه. بل ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ فإن أحداث الكون مسجلة ومرصودة في اللوح المحفوظ، فلا يفوت منها شيء، بما فيها أعمالكم التي سيجازيكم بها. بما يعني حصر كل شيء في اللوح المحفوظ، مع الإثبات له بالتسجيل ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إن ذلك الرصد والتسجيل لحركة الكون والعباد، سهل وهين ويسير، وليس فيه امتناع أو صعوبة على ربكم عَزَّ وجل، لأن من خلق هذا الكون العظيم سهل ويسير عليه كل شيء يريده. فلا يمتنع عليه شيء أبداً. وبالتالي فإن الحكم والفصل بين عباده فيما يختلفون فيه سهل يسير عليه جَلَّ جلاله. وفي هذا بيان لعظيم قدرة الله تعالى، وكمال عدله المترتب على كمال ودقة علمه بكل شيء، وإحصائه له، وإثباته في كتاب.

ومن جميل وعظمة البيان أن الخطاب ورد بصيغة ما هو أعظم من شأنهم، والعلم بهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما يفيد أن شمولية دقة علمه عَزَّ وجل بهذا الكون دليل على هوان العلم بكم وسهولته، والقدرة عليكم. فمن يعلم ما في السماء والأرض فهو بكم أقدر. كما أن في هذا البيان لفت الانتباه لعظمة خلق السماء والأرض، وما أنتم إلا شيء يسير من هذا الكون العظيم، فأنتم جزء مما في الأرض.

ثم يبين سبحانه وتعالى مقدار انغماسهم في جهلهم بأمر العبودية ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ إن هؤلاء المشركين يعبدون غير الله تعالى من غير حجة ولا برهان، بل انغماساً في جهلهم. وعند الحساب والعذاب لن يجدوا من ينصرهم، ويدفع عنهم العذاب من معبوداتهم. فيقرر في هذه الآية الكريمة ثلاثة قضايا: القضية الأولى: أنهم يعبدون معبودات ليس لهم فيها دليل ولا حجة، ولا برهان من الله تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾

والقضية الثانية: أنهم يعبدون تلك المعبودات عن جهل بما يعبدون من دونه سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ والقضية الثالثة: فداحة خسارتهم، بتفويتهم نصرة الله تعالى، وكرمه لهم، وذلك بعبادتهم للعاجزين عن نصرتهم ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله تعالى، من غير حجة ولا برهان على ما عبدوا ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ فكلمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ تجمع جميع أنواع العبادة، من التوجه والتوسل والذبح وغيرها من مفردات وتفاصيل العبادة. كما أن جملة ﴿ مِن دُونِ ﴾ تبين أمرين: الأول: أن كل شيء معبود غير الله تعالى فإن موقعه الدون والدنو والأسفل، وأن الله تعالى أكرم وأعلى وأعز منه، وهم دونه، وتحت سلطانه. والثاني: إفادتها للمباعدة العميقة، بأنهم موغلون في البعد عن عبادة الله تعالى إلى درجة التناهي في البعد، وقربهم الشديد مما لا ينفع ولا يضر. ودليل ذلك أنهم يعبدون ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ يعبدون معبودات ليس لهم فيها دليل ولا حجة ولا برهان من الله تعالى، فجعلوا معبوداتهم شركاء لله تعالى، وهو لم ينزل بذلك التشريع الذي شَرَّعُوه دليل ولا حجة ولا برهان. فعلى أي شيء يعتمدون في ذلك؟ غير الكذب والافتراء على الله تعالى بما لم ينزل فيه برهان ولا حجة. وكذلك ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فليست عبادتهم وفق علم عَلِمُوه، فإن انتفاء العلم عنهم في عبادتهم دليل على أنه وفق الجهل الذي اعتمدوه بالتقليد أو بالإنشاء والافتراء. فانتفاء الدليل وثبوت الجهل كانا دليلاً على سذاجتهم في ذلك التصرف من العبادة.

ثم ينفي عنهم تبارك وتعالى النصير والمعين والمدافع والمنافح عنهم ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ بما يؤكد بطلان معبوداتهم العاجزة عن مناصرة من يعبدها. ويبين ويؤكد فداحة خسارتهم، وتفويتهم لنصرة الله تعالى، وكرمه، وما أعده لمن وحده وفق ما شرع سبحانه وتعالى. وفي هذا غاية الكشف والبيان لحقيقة ما هم عليه. ليكون هذا البيان حجة عليهم، وحجة على كل من عبد غير الله تعالى. وتأكيد وإيضاح لمن وحد الله تعالى بأنه على الطريق الصحيح.

ثم يجلي سبحانه وتعالى خصائص الكافرين وملامحهم، وما تنطوي عليه قلوبهم من الحقد على من آمن. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فمن إجرام هؤلاء الكفرة أنهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾

حين تُقرَأ عليهم آيات القرآن البينات الواضحات ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ ﴾ تظهر على وجوههم دلائل وعلامات إنكارهم وكراهتهم لما يسمعون من القرآن العظيم. مما يدل على قوة غضبهم وغيظهم، وكرههم للحق الذي جاء من عند الله عَزَّ وجل، فلم يستطيعوا إخفاء شيء منه. مما يدل على أن نفوسهم قد امتلأت كراهة لما يُتْلَى عليهم من كتاب الله عَزَّ وجل؛ إلى درجة أن فاضت بواطنهم بما في نفوسهم من الكره؛ حتى ظهر الكره بكل وضوح على وجوههم. فلم يستطيعوا التخفي به، وستره. وهو تصوير لحقائقهم وكأنك تنظر إليهم من قوة البيان في إيضاح حالة انفعالهم الباطني والنفسي، وظهوره على وجوههم.

وقد ورد البيان في إيضاح وكشف حالتهم بأسلوب غاية في الدقة والتوضيح. فجملة ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أفادت تعميم القارئ الذي يتلو القرآن، إذ لم يُسمَّ فاعله، سواء كان الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أي أحد من المؤمنين. ليدل على عدم تقبلهم لمضمون آيات القرآن الكريم، وتمعر وجوههم أياً كان التالي لآيات الله تعالى، لتنصب الكراهية على المتلو من الآية الكريمة؛ من أي مصدر كانت تلك التلاوة. كما وصف سبحانه وتعالى آيات القرآن بأنها واضحات ﴿ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ ﴾ فالمتلو عليهم واضح الدلالة بالحجة القوية الباهرة الواضحة الجلية، والخالية من الغموض.

وحين تلاوتها يظهر أثر إنكارهم لما يسمعون عليهم مباشرة في وجوههم. وكلمة ﴿ تَعۡرِفُ ﴾ بيان لقوة الظهور وعدم الخفاء، فتحصل المعرفة لهم مباشرة وبسرعة لمن ينظر إلى وجوههم، بما يؤكد أن الذي ظهر على وجوههم لا يحتاج إلى تقصي وتمعن وتكلف لمعرفته. فهو ظاهر لكل من يراهم، فليس ما يظهر على وجوههم يحتاج إلى تفرس وتدقيق لإدراك إنكارهم، فإنه بمجرد مشاهدتهم يعرف المشاهد لهم تأثر ملامح وجوههم بما تحمله بواطنهم من قوة الكراهة التي لم يستطيعوا إخفاءها. كما دلت جملة ﴿ وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ على الجمع، أي: أنهم جميعاً متواطئون على ذلك، فليس بعضاً منهم، بل كلهم على قلب رجل فاجر واحد. مما يبين أن العلة الجامعة لهم هي ملة الكفر، وإنكار الحق، وبغضهم له. بما يفيد أن الكفر يجعل صاحبه يتوافق مع غيره في كراهية الحق.

ثم يقول تبارك وتعالى عن قوة انزعاجهم وحنقهم، وعدم قدرتهم على تحمل ما يُتلى عليهم من آيات الله تعالى أنهم ﴿ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ ﴾ فمن قوة كرههم لما يسمعون من آيات الله تعالى أنه يوشك كل واحد منهم أن يبطش بالتالي لآياته سبحانه وتعالى، وهو معنى ﴿ يَسۡطُونَ ﴾ فيوشك أن يوقعوا بهم القتل والضرب البالغ في شدته، لما بلغ بهم من الحقد والكره لما يسمعون من آيات الله تعالى التي تتلى عليهم. فموقع الكره وإرادة السطو كائن على التالين لآيات الله تعالى التي لا يتحملون سماعها،

من كرههم للحق. وكلمة ﴿يَسْطُونَ﴾ مع ما قبلها من كلمة ﴿يَكَادُونَ﴾ تعطي دلالة اختلاج حالتين نفسيتين في قلوبهم، الأولى: الرغبة العارمة في مقاتلتهم والنيل منهم. والثانية: قوة الممانعة التي تمنعهم وتحول بينهم وبين تحقيق مرادهم من القتل والبطش بالسطو عليهم، فجاءت جملة ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ في أقوى دلالات الإيضاح لموقفهم عند سماعهم ما يُتلى عليهم من آيات الله تعالى. فلولا الموانع التي تمنعهم من السطو، لقتلوهم من شدة ما يجدون في صدورهم من حرارة الغل، وغليان الحقد والكره للحق.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم حال امتعاضهم من سماع آيات ربهم جلَّ في علاه ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ فهل أخبركم بما هو أشد منه؟ فإذا كان سماع آيات الله تعالى قد أغاظكم بهذا الغيظ الذي تعالى في باطنكم حتى امتنع عليكم وأعياكم منع ظهوره على وجوهكم، فهل أخبركم بما هو أشد منه؟ فهو سؤال ليس على سبيل التخيير، وليس على سبيل الاستئذان، بل هو على سبيل التهديد والوعيد، فهو سؤال يعطي دلالة التهكم والتحقير والإذلال لهم، فإن الذي أشد منه هو ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فإن كان ما سمعتم هو بالنسبة لكم شر تمتعضون منه، فإن الأشر منه هو النار التي وعدها الله تعالى جميع من كفر، فإنها بئس ما تسيرون إليه باختياركم الكفر ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فبئس المكان والموضع والمرجع والمقام الذي تصيرون إليه، وجميع من كفر بالله تعالى. فهو بيان وعظي في غاية التحذير من التمادي في الكفر. وبأسلوب بليغ حكيم في بيانه ونصحه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

يوضح الله تبارك وتعالى قُبح عبادة الأوثان من خلال بيان حقيقة نقصان وضعف عقول من عبدوها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ

﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ يخاطب الله تبارك وتعالى الناس جميعاً، بنداء لعموم جنس الإنسان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وخاصة المشركين، ليوضح لهم ضلال الشرك، وبما تقوم به الحجة عليهم. فشمل النداء جميع عموم جنس الإنسان، حتى يتعلم المؤمن، ويزداد بذلك علماً وبصيرة، ويزداد يقيناً بما هو عليه من عبادة الله تعالى، وما يكون عليه في دعوته ونصحه بهذا المثل المضروب للناس من ربهم تبارك وتعالى. وفي نفس الوقت هو لفت انتباه للكفرة بالتأمل لهذا التوضيح من ربهم.

ومن دقائق البيان في العلاقة بين تعميم النداء للناس جميعاً بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وبين قوله عَزَّ وجل للمشركين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أن ورود النداء عاماً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليشمل الجميع فيما يخص ضرب المثل، ثم خصص المشركين بما هم عليه من الشرك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فأفاد التعميم تنبيه الناس جميعاً لمضمون المثل. وأفاد تخصيص المشركين بأنهم المعنيون بما هم عليه من الشرك. كما أفاد التعميم تنبيه الناس على بطلان عبادة المشركين بتخصيصهم بما ناداهم له من ضرب المثل. وأفاد التعميم كثرة المشركين، وأن الغالب في الناس الشرك حين نزل القرآن الكريم، فخاطبهم بما هو عام فيهم.

وفي مخاطبتهم بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ما يلفت انتباههم، ويشد أذهانهم للمنادي، وإلى ما ناداهم إليه، فهو نداء تنبيه، ليقول لهم سبحانه وتعالى ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بما يفيد انتبهوا إلى هذا المثل المضروب لكم، وتأملوه بإلقاء أسماعكم وأفئدتكم إليه، ومتأملين مضمونه وما احتواه من المعاني والدلالات العظيمة التي تكشف لكم الحقيقة في جانب العبودية. وقد ورد الفعل ﴿ضُرِبَ﴾ من غير تسمية فاعله، أي الضارب للمثل. وفي ذلك شد الانتباه للمثل المضروب، بعد أن سبقه شد الانتباه بالنداء، مما يفيد أن الأمر في غاية الأهمية، وهو أسلوب علاجي وتربوي في تهيئة عقل المخاطب، وأخذه لما يراد تعليمه وتنبيهه إليه. وضَرْبُ المثل غالباً ما يكون لبيان الأمر الخفي، لتقريب وتوضيح حقيقة الشيء الذي انصرف عن معرفته العقل، لجهله واعتياده على ما أَلِفَهُ من الآباء والاجداد الضالين بشركهم، وأصبح في بُعْدٍ عن الحقيقة، نتيجة أَسره لنفسه فيما اعتاد عليه.

والمثل هو: الشبيه الأكثر وضوحاً للمشبه به. فيكون بتصوير الغائب في هيئة الموجود والمشاهد، وتصوير المعنوي في صورة المحسوس، بتقريبه إلى ذهن المتلقي. وهي وسيلة تعليمية في غاية الأهمية، وتظهر

قوتها في قوة سياق المثل المضروب. ومن قوة شد الانتباه هو جملة ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ التي تشد الْمُخَاطَب إلى الاستماع والانتباه، والمتابعة لما بعده، من أجل تقصي معرفة هذا المثل المضروب.

ثم يأمر سبحانه وتعالى الْمُخَاطَب بمتابعة ذلك من خلال أمرهم باستماع هذا المثل ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾ ويُعْتَبَر هذا الأمر هو شد الانتباه الثالث: فعليكم أن تستمعوا له بانتباه وتعقل. وفي ذلك استثارة وتشويق للمخاطبين بالمتابعة. ثم يتوجه تخصيص الخطاب إلى المشركين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فانتقل من عموم الناس إلى المخصوصين من المشركين، بأن المعبودات التي تتوسلون إليها من غير الله تعالى، والتي هي دونه عَزَّ وجل، لحقارتها، وبعدها عن منزلة ومكانة الله تبارك وتعالى فإنهم ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ فجميع ما تعبدون من دون الله عَزَّ وجل لا يستطيعون خلق ذبابة صغيرة في حجمها ومكوناتها. وهو لفت انتباه إلى امتناع قدرة تلك المعبودات أن تخلق شيئاً صغيراً وحقيراً في أذهان المخاطبين. بما يفيد فكيف لها أن تخلق ما هو أكبر من ذلك. فإذاً كيف تعبدون العاجز، ولا توحدون ربكم الذي خلقكم، وخلق السماوات والأرض، وأنبت الزرع، وغير ذلك من المخلوقات.

ثم يزداد إظهار عجز تلك المخلوقات بإضافة الاجتماع الذي ينم عن التعاضد والتعاون بين جميع تلك المعبودات من دون الله تعالى على خلق الذبابة. فيقول عَزَّ وجل في هذا المثل المضروب ﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ حتى ولو اجتمعت تلك المعبودات مع بعضها البعض لعجزت عن خلق ذبابة. فكيف تتوجهون لها، وتطلبون من العاجز ما هو عاجز عنه. ثم يتدرج معهم المثل إلى ما هو أدنى من خلق الذبابة، إلى أمر يسير متعلق بأفعال الذبابة ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ وإن أخذت الذبابة من أحد تلك المعبودات شيئاً على طريقة السرقة والانتزاع، وليس على طريقة العطاء، فإن ذلك المعبود عاجز عن استرداد ما انتزعته الذبابة منه عنوة، فمع صغر حجمها وحقارتها، وضعفها، وقوت معبودكم من الأصنام كما تتخيلونها وتتصورونها، حتى أقنعتم أنفسكم بما تكذبون، وصَدَّقْتُم افتراءكم الذي افتريتموه. فإذاً كيف يعطيكم هذا المعبود ويمدكم بالعطاء ويستجيب لكم وهو في أشد العجز عن استرداد حقه الذي أُخِذ منه عنوة وانتزاعاً، بواسطة مخلوق صغير ضعيف عاجز؟

ويزداد الكشف لحقيقة هذه المعبودات من دون الله تعالى بالتحقير لها ولمن عبدها من دون الله تعالى الكبير المتعال ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ ضعف الصنم عن استرداد حقه إن كان يريد استرداد الذي انتزعته الذبابة الضعيفة منه، وضعف المطلوب الذي هو الذبابة الضعيفة، وما أخذته مما لا تراه

العين لصغر حجمه وقلته وحقارته. فضعف هذا الطالب إن لم يستطع انتزاع حقه من ضعيف. بما يبين ضعف المعبود المهين العاجز من دون الله تعالى أن يعجز عن أخذ حقه من ضعيف. فكيف لو كان الآخذ قوياً. فكيف تعبدون هذا العاجز الضعيف، وتتركون القادر العظيم سبحانه وتعالى. فهو مثل في أبلغ الإيضاح والبيان لحقيقة هذه المعبودات من دون الله تعالى.

بل من سعة دلالة المثل: أنه يستوعب دلالة أخرى، وهي: ضعف عابد الصنم الذي يطلب ويتقرب إلى معبود عاجز وضعيف، فيكون الطالب هو العابد للصنم، والمطلوب هو الصنم. مما يبين ضعف هذا العابد للصنم في فكره وعقله وتوجهه، كما ضَعُف هذا المعبود من الأصنام العاجز عن أن يسمع من يعبده، ويرد عليه، ويعينه ويحقق له ما يرجوه، أو يدفع عنه ما يضره. وفي هذا البيان العظيم كشف وتعرية للمعبودات من دون الله تعالى في أقوى مثل تتعرى به من قوة الحقيقة، وتنكشف به عقول من توجه إليها بالعبادة والمسألة، ودفع الضر والبؤس. فهو مثل يستثير التعجب من مخلوق ضعيف يترك ربه الحقيقي؛ القوي، القادر، ويتعلق بضعيف عاجز عن إعادة حقه من ضعيف.

ثم ينفي الله تُبارك وتعالى عن المشركين معرفتهم لحق ربهم جَلَّ جلاله بما أشركوا معه غيره من معبودات. فينفي عنهم ما كان يجب عليهم من تعظيم ربهم عَزَّ وجل، إذ أشركوا معه غيره في عبوديته ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ إن هؤلاء المشركين الذين أشركوا مع الله تعالى غيره في العبودية ما عظموه سبحانه وتعالى حق التعظيم، بمساواتهم بين الخالق القادر القوي على كل شيء وبين العاجز عن أخذ ما سلبه أصغر وأضعف المخلوقات، وهو الذباب. مؤكداً ومبيناً سبحانه وتعالى لعباده بما اتصف به من كمال القوة والعزة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ فإن الله ربكم عَزَّ وجل هو المتفرد بكمال القوة والعزة. فإنه القوي الذي لا يغلبه أحد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ ﴾ وأن كل شيء مغلوب ومقهور عند قوته. فإن ربكم تبارك وتعالى متصف بالقوة، وكمال القدرة على تحقيق ما يريد. وأن ربكم متصف بالعزة ﴿عَزِيزٌ ﴾ فإنه العزيز الذي لا يُرام ولا يُمَانَع. فأخبر جَلَّ شأنه عن كمال قوته وقدرته وعزته. فلا يغالبه مُغالب، ولا يدفع مراده مُدافع، فكل شيء تحت قوته وقهره وعزته وسلطانه. وبالتالي كيف يكون منكم أيها المشركون تعظيم من لا يستحق التعظيم، وتتركون ربكم المتصف بكمال العظمة. مما يدل على شناعة عقولكم وتفكيركم ومنهجكم، وخسارتكم الفادحة التي لا يمكن تعويضها أبداً. وقد أكد تبارك وتعالى ذلك بنون التوكيد ﴿إِنَّ ﴾ التي تؤكد تحقيق وتحقق ما بعدها، مع بيان صفته سبحانه وتعالى المؤكدة لتحقق النصر بأنه ﴿لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

وبعد بيان الله تعالى لكمال قوته وعزته وقدرته، وضعف ما يُعْبَد من دونه جَلَّ جلاله يوضح ويبين أن له كمال الاصطفاء والاختيار لمن يرسلهم من الملائكة ومن الناس، فليس لأحد من خلقه حق الاعتراض ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ فمن قوته وعزته وعظمة سلطانه أنه عَزَّ وجل ﴿يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهو أعلم حيث يجعل رسالته. بما يفيد: ليس لكم؛ ولا لأحد من خلقه أن يُعَيّن ويختار، ويحدد من يرسلهم الله تعالى لعباده من المرسلين. فليست مقاييسكم هي المحددة لما يصطفي ويختار، بل له كمال الملك، وكمال التعيين والاختيار. فهذا شأن الله تعالى وحده لا شريك له، وليس شأن خلفه. وهو المتفق مع قوته وعزته، وهو عالم بما يكون منكم من الأقوال فيسمعه، ومن الأفعال فيراه. فلا يخفى عليه منكم شيء تقولونه أو تعملونه، أو تتخفَّون به، فإنه عَزَّ وجل عليم بما تتكتمون عليه وتضمرونه فلا تُظهرونه.

ثم يؤكد ذلك الاختيار والاصطفاء ببيان كمال علمه بهم. فإنه جَلَّ جلاله سميع بما يرد به الكفرة على رُسُلِه، ويرى جميع ما يحدث منكم مع نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فلا يخفى عليه شيء من شأنكم أيها الناس عموماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ فإن ربكم سميع لكل صوت، فلا تختلط عليه الأصوات، وتداخل الكلام. وأنه بصير بعباده، وبصير بما يختار ويصطفي من المرسلين. ووردت صفة السمع بصيغة المبالغة ﴿سَمِيعُۢ ﴾ والتي تفيد قوة السمع، فلا يفوته من المسموعات شيء أبداً؛ مهما تخفى المتكلم به، من خفض صوت، أو تكتم عليه، فلا تفوته عَزَّ وجل حتى الكلمة الواحدة. وكذلك وردت صفة الإبصار بصيغة المبالغة ﴿بَصِيرٞ ﴾ التي تفيد قوة البصر الذي لا يفوته به شيء سبحانه وتعالى، مهما كان صغر حجمه، ومهما كان ظلام المكان الذي هو فيه، ومهما بلغ التخفي، فلا يفوته حتى الجزء من الشيء، ولا صغر حجم المتخفي، حتى ولو كان مثل خردلة على صخرة صماء؛ في ليلة سوداء. فلا يغيب عنه متغيبٌ أبداً. مما يفيد التحذير من التخفي بالقول والفعل، فإنه لا يخفى على ربكم شيء أبداً، فالكل ظاهر عنده: هيئة وصوتاً.

ثم يبين سبحانه وتعالى المزيد من دقائق علمه جَلَّ جلاله، وعظيم سلطانه ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ فيعلم شأن وأمر عباده مما قدموا وعملوا، وما يُظهرون وما يُبطنون، بل يعلم ما سيكون بين أيديهم قبل أن يكون، ويدخل في ذلك الذين اصطفاهم من المرسلين. وهو معنى ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي: يعلم ما سيكون أمامهم وقادم عليهم قبل أن يكون ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ أي: وما تركوه وخَلَّفُوه، وما هو كائن بعد فنائهم، وما يتخفون به من عباده جميعاً، وهو معنى ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾

وتشمل أيضاً دلالة ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ ما هو متعلق بأمر الساعة، وما هم مقبلين عليه من شأن الآخرة، ومما سيصيرون إليه من ثواب، أو عقاب ﴿ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ ما كان منهم من أمر الدنيا، ومما خلَّفوه وراءهم، من شأن دنياهم. فقد أحاط بهم إحاطة كاملة تامة. وأما العباد فلا يحيطون بالله تعالى علماً. وبالتالي فإنه سبحانه وتعالى عالم بِرُسُلِهِ، وما كان منهم، وما كان وما يكون وما سيكون من عباده في تجاوبهم وطاعتهم، أو في ردهم وصدهم، وإنكارهم.

ثم يبين عَزَّ وجل مآل كل شيء، فإنه إليه سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ فكل شيء راجع إليه وحده لا شريك له، وليس رجع إلى غيره، بل له وحده عَزَّ في علاه. مما يفيد التحذير من مخالفته، والتحذير من عقابه، فإنه تبارك وتعالى لا يخفى عليه شيء من أمر عباده، وأن مآل كل أحد ومرجعه إليه سبحانه وتعالى.

ومن قوة البيان ودقته أن حصر المرجع للأمور كلها إليه جَلَّ في علاه، وذلك بتقديم المجرور ﴿ وَإِلَى ﴾ على ما بعده. أي إلى الله تعالى، لا لغيره، في كل شيء؛ ومنها: القضاء والحكم والإثابة يوم الدين. ووردت كلمة ﴿ ٱلۡأُمُورُ ﴾ مُعَرَّفَة بأل، لتشمل جميع مفردات الأمور، نوعاً، وكماً، وقوة، وكثرة وقلة، ونية، ومتابعة ومنهجاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾

وفي ختام سورة الحج المباركة يتوجه الخطاب من الله تعالى إلى عباده المؤمنين بإيضاح ما يحقق لهم الفلاح في الدنيا والآخرة، فقال تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ يخاطب الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بالنداء لهم، مع تسميتهم بمسمى الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الذي هو تزكية ومدح وثناء لهم بكمال تصديقهم به

سبحانه وتعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبكافة الأنبياء والمرسلين، واليوم الآخر وكتبه، وبالبعث والنشور والحساب، ويوم القيامة والجنة والنار، وبجميع لوازم الإيمان. وإذا كان الله تعالى الملك القدوس يخاطب عباده المؤمنين بأعظم الصفات وأجلها فحري بالمؤمنين أن يتخاطبوا فيما بينهم بأحسن الكلام والألقاب.

وقد ورد الخطاب بياء النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ والذي يشد الانتباه لما بعده من بيان، ثم يتلوه تسميتهم بصفة وحِلْية الإيمان. ثم يرشدهم إلى ما يتحقق به فلاحهم وفوزهم ونجاتهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فبدأ الإرشاد بأعظم عبادة بعد الشهادتين، وهي الصلاة، التي ذكرها عَزَّ وجل بأعظم ركنين فيها، وهما الركوع والسجود ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ فأدوا الصلاة كما أُمِرْتُم بها، وبينها وطبقها لكم نبيكم ورسولكم محمد صلى الله عليه وسلم. وفي تخصيص الصلاة من بين العبادات دليل على عظمتها من بين جميع العبادات. وفي تخصيص الركوع والسجود باعتباره أقوى أعلام الصلاة، ودليل على عظمة هذين الركنين، لما فيهما من اظهار التذلل والخضوع لرب العالمين. مما يدل على أن من أعظم ما يتحلى به المؤمن لربه تبارك وتعالى هو الخضوع والتذلل، والانكسار لربه عَزَّ في علاه بالطاعة والامتثال والسؤال والرجاء، والمهابة والخوف من مقامه سبحانه وتعالى.

ثم انتقل التوجيه الكريم من بعد التخصيص إلى ما هو أعم وأشمل من الصلاة ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وهي العبادة الشاملة لكل ما أمر به سبحانه وتعالى، كالصيام والزكاة والحج وغيرها من أنواع العبادات. ثم تدرج البيان الكريم لما هو أعم من العبادات ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ فهو أعم باعتبار شموليته للمفروض والمندوب من الأعمال والأقوال. فهو تعميم بعد التخصيص، إذ أن الخير يشمل المندوبات، مثل: نفقة المال، والإحسان للغير، ومكارم الأخلاق، وغيرها من أفعال وأقوال الخير. وهو أسلوب حكيم في مقاصده ودلالاته، ورحابة مضمونه.

ثم يذكر سبحانه وتعالى الغاية التي يتحصل بها المؤمنون بما أمروا به ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ليتحقق لكم الفوز من الظفر بما تطلبون وتتمنون من خير الدنيا والآخرة. وفي ذلك تحريض واستنهاض وترغيب لهم في الحرص على أداء مأ أمرهم به ربهم تبارك وتعالى، والإكثار منه، والاجتهاد في ابتغائه؛ لما يعود به عليهم به من الفلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفيد كلمة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ الرجاء من العباد لما عند الله تعالى، كما أنها تفيد تعليل القيام بما أمروا به من الصلاة، وعموم العبادة، ثم عموم الخير. لتعطي جانب الاستثارة والاستنهاض والرغبة فيما أمروا به. لأن **(لعل)** تفيد الاطماع فيما عند الله تعالى من الفلاح، لأن الله عَزَّ وجل

إذا أطمع أو طَمَّعَ عبده في شيء وَفَّاهُ له بأكمل ما يكون، فما على العبد إلا استيفاء مطالب ما وُعِد به. وهو أسلوب في غاية البيان، وفي غاية البلاغة البيانية. ودليل حاسم على أن تحصيل الجنة وعموم الفلاح يقوم على بذل الجهد في أداء جميع أنوا العبادات، وأعظمها ومرتكزها الصلاة بعد الشهادتين، والاجتهاد على التسابق في فعل الخيرات، ولا يحقرن منه القليل. بل يجتهد بما يستطيع. وهذا يبين أن دين الله تعالى هو دين الخير، ودين السماحة والإحسان، والأخلاق. وأنه يثيب المؤمن على جميع أعماله، صغيرها وكبيرها.

ثم يأمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بما يحقق لهم ما أمرهم به ﴿ **وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ** ﴾ فقد تضمنت الآية الكريمة مُجمَل ما هو مطلوب من المؤمنين، وبينت الوسائل والمنهج القويم الذي يستدفع به المؤمن إرادته، ويستحثها ويتقوى بها على طاعة ربه تبارك وتعالى، **فأول ذلك مجاهدة النفس بالمغالبة** ﴿ **وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ** ﴾ فيؤكد الله تبارك وتعالى بما يستعين به عباده المؤمنين على الامتثال لما أمرهم به، وذلك بتقوية إرادتهم، من خلال مجاهدة أنفسهم ﴿ **وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ** ﴾ أي: فعل جميع الطاعات، وهذا قول الأكثرين[1] وهو بذل الوسع من الجهد في طاعة الله تعالى.

وتشمل دلالة ﴿ **وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ** ﴾ مجاهدة النفس ومغالبتها، بحثها على الطاعة، والصبر على ذلك. لأن طاعة الله تعالى بما أمر، والانتهاء عما نهى تتطلب جهداً نفسياً، وتقوية للإرادة، بحيث تجزم في فعل المأمورات، والانتهاء عما نهى الشرع عنه. ولا ينفي النص الكريم مجاهدة الكفار إذا تطلب الأمر ذلك. ولكن موقعها في السياق يجعل المتعين منها هنا هو مجاهدة النفس على فعل جميع الطاعات. ومن دقائق البيان أن المجاهدة تستوعب جميع القدرات المختلفة بين العباد. وهو سبحانه وتعالى عالم ومطلع على قدرات العباد، فلا يخفى عليه منها شيء.

وقد أكد سبحانه وتعالى الأمر بالمجاهدة بقوله عَزَّ وجل ﴿ **حَقَّ جِهَادِهِۦ** ﴾ وذلك ببذل أقصى ما يستطيع العبد من الجهد والجد في ذلك، بحيث يستوفي ما أمره الله تعالى به. فيوفي بحق الله تعالى عليه فيما

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣١٠)

أمره به، ونهاه عنه، ويخلص النية لله تبارك وتعالى. فالمجاهدة، هي مدافعة ومغالبة لهوى النفس، ووساوس الشيطان، وكل مثبط لإرادة المؤمن عن الخير.

ثم يستحث سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بما خصهم بهم، **وهو الأمر الثاني:** فبعد الأمر بالمجاهدة يستحث سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بما اصطفاهم به ﴿ **هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ** ﴾ فإنه عَزَّ وجل هو الذي اختاركم واصطفاكم من بين عباده بالإيمان والهداية والتوفيق، وخصكم بأعظم الكتب، وخاتم الأنبياء والمرسلين والرسالة، فتقبلوها بكمال الطاعة؛ لتكونوا من المفلحين. وهذا يستدعي منكم استكمال جميع ما أُمِرتُم به، ومغالبة النفس والهوى والشيطان على ذلك بالمجاهدة. فإن في الاصطفاء والاختيار استثارة النفس على الوفاء لله تعالى بما شرع، مع إخلاص النية له في القول والعمل. مما يعلم المؤمن أن يحمد الله تعالى أن هداه لدينه، واجتباه إليه. بل كلما تذكر نعمة مخصوصة قد أصابته، تذكر هذا الاصطفاء والاختصاص له من بين عباده. فهي تُعلِّم المؤمن كيف يتفقد إنعام الله تعالى عليه، وما يجب عليه من الوفاء لربه تبارك وتعالى.

ثم يستحث الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين على طاعته من خلال نفي الحرج والصعوبة في الدين.

وهو الأمر الثالث: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ** ﴾ فليس في الدين شيء من التضييق والصعوبة، بل جميع شرائع الدين ميسورة الأداء، وسهل القيام بها. كما أن فيه معالجة لكل حال وكل نوع من القصور. فإن لكل ما أمر به تخفيف ومعالجة عند الحاجة، مراعاة للأحوال، ولِمَا قد يقع فيه المؤمن من الخطأ أو التقصير، أو الحاجة إلى التخفيف والتيسير. فهناك باب الرخص للمريض والمسافر، والعاجز. وهناك معالجة للأخطاء والتقصير، من خلال القضاء، والكفارات التي تعالج التقصير والخطأ، وهناك التوبة التي تعالج الذنوب بشتى أنواعها ودرجاتها. ومع كل هذا فليس في العبادات مشقة ولا حرج. فالحمد والشكر لله تعالى على ما أنعم به وشرع.

ثم يمتن الله تعالى على عباده بما يحفزهم نحو أداء ما أمرهم به في هذا الدين، **وهو الأمر الرابع من التحضيض:** ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ** ﴾ فيبين سبحانه وتعالى عظمة هذا الدين بأنه امتداد لملة خليله أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فالملة هي الدين. بما يفيد الحث والتحضيض لهم على هذا الدين. فالذي أرسل به رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي أرسل به أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قبل. فقد احتوى الإسلام على دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وفي جعل إبراهيم أباً للمؤمنين باعتبار غالب الأمة، وباعتبار أن من نزل فيهم القرآن الكريم، وهم العرب، من سلالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وباعتبار أن كل من دخل في ملة محمد صلى الله عليه وسلم صار منه، أي: صار من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى فيما قاله إبراهيم عن من اتبع ملته ﴿ **فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي** ﴾ فيصير بذلك تبعاً لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، لأن محمد صلى الله عليه وسلم من نسل إبراهيم، فإبراهيم أباً متقدماً لمحمد عليهما الصلاة والسلام. كما

قال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في سورة إبراهيم ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ فالرسول صلى الله عليه وسلم من نسل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وكل من اتبع النبي عليه الصلاة والسلام فهو منه، وقوة الدين أقوى من قوة النسب. كما قال تعالى عن قول إبراهيم لمن تبعه ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والذي يقع لي أن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن إبراهيم أبوه، وأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلة فيما خُوطِب به رسول الله عليه الصلاة والسلام[١] فمن اتبع النبي فإنه منه. وفي هذا من الفوائد: أهمية استنهاض النفوس، وأهمية دعمها المعنوي، وعدم الاكتفاء بالبيان والتوضيح للمأمور والمنهي عنه، بل يلزم في كل شأن وأمر أن يتم دعمه بما يحث عليه. وفيه كذلك منزلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومنزلة ورفعة هذا الدين. وأنه امتداد لدين خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وكذلك رفعة منزلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يمتن الله تعالى على عباده بمحفز آخر، ليحثهم على أداء ما أمرهم به، من أنه عَزَّ وجل سماهم بالمسلمين ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ فسماهم سبحانه وتعالى بتسمية من عنده، **وهو الأمر الخامس من التحضيض:** ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ فإن الله تعالى ﴿هُوَ﴾ الذي ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾ بهذا الاسم ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: في الكتب السابقة، من قبل نزول القرآن على نبيه عليه الصلاة والسلام. وفي هذا غاية المدح والثناء، وفيه بيان لعلم الله السابق قبل أن يكونوا.

ثم يمتن الله تعالى على أمته بمحفز آخر على الطاعة؛ وذلك بعظيم التشريف لهم بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم، **وهو المعزز السادس من التحضيض** ﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ ومعنى ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في هذا الكتاب؛ الذي هو القرآن الكريم. فإن في اصطفائكم وتسميتكم بالمسلمين ليكون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم شاهداً عليكم، بأنه بلغكم بدينكم. وفي هذا تعزيز وتحضيض على متابعة ما جاءهم عن الله تعالى، بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم. ويكون الرسول صلى الله عليه وسلم شاهداً عليهم بأعمالهم. مما يفيد أهمية الشهادة ومنزلتها، وأهمية الاتصاف بالخيرية، وتبليغ الرسالة النبوية للغير. ومن الفوائد: مدح الشاهد. فالشاهد محل المدح والثناء، لأنه يساهم في إحقاق الحق. وكذلك من الفوائد: المدح والثناء لمن قُبِلَت

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١١/٥)

شهادته، فإنه دليل على أنه عَدْلٌ مُزَكَّى، فكيف وأن الله تعالى هو الذي جعل هذه الآمة شاهدة على غيرها من الأمم، بشهادة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم. فإنها منقبة عظيمة جليلة.

ثم يمتن سبحانه وتعالى على المؤمنين بمنقبة أخرى عظيمة. **وهو المعزز السابع من التحفيز والتحضيض** ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فتشهد أمة محمد صلى الله عليه وسلم على غيرها من الأمم، بأن جميع الرُّسل بلغوا أممهم، ويشهدون على الأمم أن رُسُلهم قد بلغتهم. بما أخبر الله تعالى به في كتابه القرآن العظيم، الذي تناول بالتفصيل والتوضيح ما كان من المرسلين، وما كان من أممهم. وهذا غاية التفضيل والتكريم من السيادة.

وبهذا التفضيل يكون أهل الإسلام شهداء على الناس، فقد مرت جنازة وأثنى عليها الصحابة رضي الله عنهم، فقال عليه الصلاة والسلام وجبت. ومرت أخرى، وقال بعضهم بئس الرجل، فقال صلى الله عليه وسلم: وجبت.[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن معناه: لتشهدوا للأنبياء على أممهم، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال (يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك، فيقال لهم: أبَلَّغَكُم هذا؟ فيقولون: لا. فَيُقال للنبي: أبلغتهم؟ فيول: نعم. فَيُقال: من يشهد لك؟ قال: محمد وأمته. فيشهدون أن الرُسُل قد بلغوا. فَيُقال: ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرُسُل قد بلغوا. فصدقناه. فذلك قوله ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهذا غاية التكريم لهذه الأمة[٢]

ثم بعد هذا البيان الكريم من الله تعالى يعود التأكيد على شأن الصلاة، وشأن الزكاة ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فبما أنه قد كانت لكم هذه المكارم من ربكم تبارك وتعالى؛ فإنه حري بكم، بل يجب عليكم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فيأمر العباد بهاتين الفريضتين بالتنصيص عليهما، مع تكرار أمر الفعل الذي يفيد الوجوب والأهمية لكل واحدة وفق هيئتها، فهيئة الصلاة بالإقامة ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم يتكرر فعل الأمر للزكاة وفق هيئتها بالإيتاء ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وبالتالي اختلف نوع الفعل في الصلاة عن الزكاة، ففي الصلاة ورد الفعل ﴿فَأَقِيمُوا۟﴾ بينما في الزكاة ﴿وَءَاتُوا۟﴾ وهذا من دقائق البيان في القرآن الكريم، لأن الإقامة تتطلب المحافظة والرعاية بجميع متطلباتها. فالإقامة تتجاوز الأداء إلى كمال المحافظة عليها بجميع ما يتعلق بهيئة الصلاة من الأركان والواجبات والخشوع والسنن. وأما الزكاة فوردت بفعل الإيتاء ﴿وَءَاتُوا۟﴾ وهو الإعطاء

---

(١) مسلم (٦٥٥/٢) برقم (٩٤٩) الترمذي (٥٠٣/٥) برقم (٣٥٢٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٨/١)

للغير، أي الإعطاء للمستحق. وهذا من الإعجاز في البيان الذي يحمل دقة اللفظ مع دقة دلالته المستوفية للمقصود ومعناه. وهذا التخصيص يوضح ويؤكد على أهميتها من بين جميع العبادات، فهما من أوجب العبادات التي ينبغي على المسلم العناية بها، فإن الصلاة بين العبد وربه تبارك وتعالى. وإيتاء الزكاة بين العباد فيما بينهم. مما يُعَلِّم المؤمن أهمية معرفة مجتمعه، وأهمية إيصال الزكاة لأصحابها من المستحقين لها، وهذا يتطلب معرفة المجتمع لبعضه البعض، وبأن يتعاطفون ويتكاتفون بأداء هذه الزكاة خاصة، وبالصدقات عامة. ففرضية الزكاة توجب معرفة مستحقيها. وهذا من عمق الدين الذي يؤكد أنه من عند الله تعالى.

ثم يتدرج البيان بالْمُخَاطَبين إلى توجيه المؤمنين بالركون والالتجاء إليه سبحانه وتعالى، حتى يعصمكم من جميع ما يُسخطه عَزَّ وجل ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: بالالتجاء إليه والتوكل عليه تبارك وتعالى، والاستعانة والاستغاثة به في كل أموركم. مبيناً لهم أنه هو الذي يتولى أموركم ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ فهو حافظكم وناصركم، فليس لكم مولى ولا ناصر من دونه. ثم يبين عَزَّ وجل كمال نصره ومؤازرته بعظيم المحامد ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فنعم المالك والناصر والحافظ والمعطي لكم، والمتولي أموركم سبحانه وتعالى. فليس هناك أحسن ولا أكمل من الله تعالى في تدبير شؤونكم ونصرتكم.

ودلالة **(نعم)** من قوله تعالى ﴿فَنِعۡمَ﴾ مستوفية لكمال المدح والثناء. وقد تكررت مع صفة المولى، ومع صفة النصير، لبيان كمال المدح، وإظهاره إظهاراً يوضح ويبين قوة الثناء والمدح، والممدوح به، وهو الشأن المتعلق بتوليه أموركم سبحانه وتعالى، وتدل على أن قوة المدح قد بلغ أقصى درجاته في نصرتكم إيها المؤمنون، وتولي شؤونكم. ومن جمال ودقة البيان أنه سبحانه وتعالى جعل صفة المولى والنصير عامة، لتشمل جميع شؤون وحاجات المسلم. بل وورد ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ بصيغة المبالغة في النصر والإعزاز. وبما يفيد أن غير المسلم ليس له من الله تعالى ولاية خاصة، ولا مساندة لهم على المؤمنين. وفي هذا البيان عن هذه الحقائق ترغيب من الله تعالى لعباده المؤمنين في طاعته، ومجاهدة أنفسهم في ذلك، لتحصيل تلك الولاية والمعية، وأن عليهم الاستعانة بربهم، والتوكل عليه، فإن العطاء والمنعة منه عَزَّ في علاه.

فقد ختم الله تعالى هذه السورة بكمال الترغيب في طاعته، وبأعظم الأساليب، وبأقوى المحفزات التي تحفز المؤمن أن يكون عبداً طائعاً لربه تبارك وتعالى، وذلك بأداء فرائضه، ومجاهدة النفس في الارتقاء بها إلى كمال الطاعة. فإن الحمد لله تعالى على هذا الكرم العظيم من فضله ورحمته ولطفه وكمال عنايته بعباده المؤمنين.

تم بحمد الله إتمام سورة الحج، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.